الصراع المصري العبري
والصراع الفلسطيني الإسرائيلي

القسم الثاني

مصر وفلسطين
والأصولية الدينية

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

العلاقة بين اليهودية والصهيونية

((إنى أنا الرب ساكن فى وسط بنى إسرائيل)) (العهد القديم- عدد ٣٥) .

((الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل)) (العهد القديم -يشوع ١٠) .

((فقال الرب لداود اصعد لإنى دفعًا أدفع الفلسطينيين ليدك)) (صموئيل الثانى / ٥) .

((رنموا للرب الساكن فى صهيون)) (المزمور التاسع لداود).

***

((إنّ خلاص البشرية من اليهود ، بل والتحرر الاجتماعى اليهودى نفسه ، إنما يقوم فى تحرير الإنسانية من اليهودية)) (كارل ماركس فى كتابه «المسألة اليهودية ») .

***

لقد مرّت مأساة الشعب الفلسطينى بعدة مراحل :

أولا : مرحلة التأسيس الأيديولوجى : وهى المرحلة التى

انحاز فيها إله العبريين إلى بنى إسرائيل انحيازًا مطلقًا فى مقابل العداء المطلق ضد غيرهم من الشعوب. والمرجعية الأساسية لهذا الانحياز تستند إلى كتب العبريين التى يُقدّسونها ، وفيها يُوزع إلههم أراضى الشعوب المستقرة عليهم مثل ((وكان فى الأرض جوع غيرالجوع الأول الذى كان فى أيام إبراهيم . فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار. وظهرله الرب)) إلى أنْ قال ((لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد وأفى بالقسم الذى أقسمتُ لإبراهيم أبيك)) (تكوين ٢٦ : ١ - ٤) وبعد أنْ مات موسى استدعى الرب يشوع وقال له ((موسى عبدى قد مات . فالآن قم أعبرالأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا مُعطيها لهم أى لبنى إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيه كما كلمت موسى . من البرية ولبنان هذا إلى النهرالكبيرنهرالفرات)) (يشوع ١ : ١ - ٩) .

إنّ المؤمنين الأتقياء من بنى إسرائيل المعاصرين لنا ، يلغون عقولهم فى سبيل التمسك بالنص . فإذا كانت الشعوب المنتمية لأوطان لها حدود جغرافية محددة ، واكتسبتْ هذه الحدود بحق الاستقرارالذى جاء تتويجًا لظروف النشأة والعمل والبناء ، فإنّ مشيئة الإله العبرى تُقرّر سلب أراضى الشعوب التى زرعتْ وشيّدتْ، وتسليمها إلى شعبه المختار ((ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى حَلَفَ لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أنْ يُعطيك إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها وآبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تغرسها وأكلتَ وشبعتَ . فاحترز لئلا تنسى الرب الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. الرب إلهك تتقى وإياه تعبد وباسمه تحلف)) (تثنية ٦ : ١٠ - ١٣) .

إنّ الحركة الصهيونية فى العصرالحديث التى استهدفتْ تجميع اليهود من كل دول العالم من أجل استيطانهم فى أرض ليست لهم ، وهى الحركة التى انتهتْ بطرد الشعب الفلسطينى من أرضه ، هذه الحركة الصهيونية إنما استندتْ إلى مرجعية الديانة العبرية ، فحتى العنف الذى يُمارسه المتدينون الأتقياء من بنى إسرائيل

المعاصرون لنا ، له مرجعيته الدينية فى كتابهم الذى يُقدّسونه. ففى سفر التثنية يقول موسى لبنى إسرائيل إنه عند الدخول إلى مدينة لمحاربتها وقبلتْ الصلح ، فإنّ أبناء الشعب المغزو يتحولون إلى عبيد لبنى إسرائيل . أما فى حالة رفض الصلح ، يقول موسى: ((وإنْ لم تُسالمك بل عملتْ معك حربًا فحاصرها . وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك)) (تثنية ٢٠ : ١٠ — ١٥) .

بعد هذا الاقتباس المختصر لنماذج من مرحلة التأسيس الأيديولوجى ، فإنّ الباحث قد يلتمس العذر للشعب الفلسطينى الذى استقر فى أرضه أكثر من ألفىْ عام ، ولم يُحذره مثقفوه من خطورة مرجعية بنى إسرائيل الدينية ، وهى المرجعية التى ظلتْ كامنة تحت الرماد حتى اشتعلتْ عام ١٨٩٧ ، عام المخطط الصهيونى تمهيدًا لطرد شعب من أرضه .

ثانيًا : مرحلة المخطط الصهيونى : فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى أصدر الكاتب الألمانى (موزيس هيسى) كتابًا عن (تاريخ البشرية) قال فيه: ((إنّ شعب الله المختار ينبغى أنْ يختفى إلى الأبد ، ليفسح الطريق لحياة جديدة أكثر نقاءً وطهرًا)) ولكنه بعد عدة سنوات تراجع عن أفكاره الأولى ، وقرّر اعتناق الصهيونية ذات المرجعية الدينية ، فأصدر فى عام ١٨٦٢ كتابه (روما والقدس) دعا فيه إلى تجميع اليهود من شتاتهم واحتلال فلسطين لتكون وطنًا لليهود ، وبذلك يكون (موزيس هيسى) قد سبق هرتزل الذى نجح فى عقد المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧ فى مدينة بال بسويسرا . بعد هذا المؤتمر تم الاستعداد لتوطين اليهود فى أوغندا أو فى سيناء ، ونظرًا لرفض الإنجليز هذا الاقتراح ، فقد استقر الرأى على الاستيلاء على فلسطين .

فى هذه الفترة برز كاتب ألمانى آخر هو (آرثر روبين) الذى شدّ أنظار زعماء الحركة الصهيونية إليه بكتابه (اليهود فى الزمن الراهن) فطلبوا منه ترك ألمانيا

والتوجه إلى فلسطين ، وذلك بغرض محدد وهو إعداد تقرير عن أوضاع المستوطنات الصهيونية فى فلسطين . وكان ذلك فى عام ١٩٠٧ وفى العام التالى عيّنته الحركة الصهيونية رئيسًا لمكتب المنظمة الصهيونية فى فلسطين .

والسؤال الذى يفرض نفسه بإلحاح هو: اذا كانت الحركة الصهيونية نجحت فى (زرع) مكتب لها فى فلسطين مع بداية القرن العشرين ، فكيف تم ذلك وبهذه البساطة ؟ واذا كان العرب فى ذاك الوقت مجرد قبائل متصارعة ، ولم يستقروا فى (أوطان) وفق التعريف العلمى لمفهوم الوطن ، أو مفهوم الدولة State فلماذا لم ينتبه الفلسطينيون للخطر المحدق بهم، وللمخططات التى بدأ تنفيذها ، خاصة وأنّ الصهاينة أصبحوا فى عقر دارهم ؟ ما هى الأسباب التى منعتْ الخيال الشعبى الفلسطينى من بدء الكفاح المسلح بالأسلوب العلمى لحرب التحرير الشعبية ، كما فعلتْ شعوب عديدة ، لعلّ مثالها الأشهر هو الشعب الفيتنامى ؟ وقد يكون السؤال تعبيرًا عن الدهشة ، وقد يكون عشقًا للمعرفة ، ولكنه فى كل الأحوال المدخل الطبيعى لمحاولة الإجابة التى – إنْ تسلحتْ بالحقيقة وتجرّدت من أية عواطف أو مصالح – قد تساعد فى وضع الحلول العلمية والعملية لإنهاء مأساة الشعب الفلسطينى .

ثالثًا : مرحلة وعد بلفور ١٩١٧ : وهى المرحلة التى شهدتْ انحياز أكبر دولة استعمارية فى ذاك الوقت للحركة الصهيونية ، وذلك لمؤازرة اليهود وتأييدهم فى إقامة وطن لهم فى فلسطين . واذا كانت هذه المرحلة التى تنتهى فى ١٤ مايو١٩٤٨ تاريخ إعلان الدولة العبرية ، قد شهدتْ انتفاضات عديدة للشعب الفلسطينى أبرزها تصاعد الصراع ضد المحتل فى الثلاثينيات من القرن العشرين ، فإنّ الباحث عن الحقيقة وحدها لابد أنْ يسأل : لماذا لم يحدث التراكم الكيفى بعد كل التضحيات التى قدّمها الشعب الفلسطينى قبل قرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر عام ١٩٤٧ والذى مهّد لإعلان الدولة العبرية ؟ وما هى العوامل التى أدّتْ إلى انتصار

العصابات الصهيونية المعتدية على أصحاب الحق التاريخى ؟ والسؤال بصيغة أخرى : لماذا لم يكن التراكم الكيفى للصراع مع أصحاب الحق؟ وهل يكون السبب أنّ تضحيات الشعب الفلسطينى كانت بعيدة عن التعريف العلمى لحرب التحرير الشعبية التى خاضتها شعوب عديدة مثل الشعب الفيتنامى ؟

أعتقد أنّ محاولة الإجابة الجادة سوف تساعد على فصل الأوهام عن الحقائق ، والأساطير عن الواقع . ومن أمثلة الأوهام / الأساطيرالدورالذى لعبه الخطاب الإعلامى الثقافى العروبى الذى ركز خطابه على أنّ الحكومات العربية وشعوبها مسؤولة عن تحرير فلسطين . وقد ترتّب على ذلك – بمفهوم المخالفة كما يقول القانونيون – أنّ مسئولية الشعب الفلسطينى عن تحرير أرضه مسؤولية ثانوية . وهكذا تسبب الخطاب الإعلامى العروبى فى تعميق مأساة الشعب الفلسطينى ، لأنّ خبرة الشعوب التى ناضلتْ من أجل تحرير كامل ترابها ، تؤكد على أنّ الاعتماد على الذات – أولا وقبل كل شىء – هو الأساس فى الانتصار على المحتل . لقد ساعدتْ الشعوب الحرة الشعب الفيتنامى بالمال والسلاح ، ولكن كان الشعب الفيتنامى هو المسؤول الأول والأخيرالذى قاد حرب التحريرالشعبية ، حتى تحقق له النصر على أكبر دولة قادت الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية .

كما اعتمد الخطاب الإعلامى العروبى على الشعارات والخطب ، مثل التركيز على أنّ الفلسطينيين أصحاب حق ، مع التغاضى عن عوامل القوة التى تُدعم هذا الحق . وأهم هذه العوامل وحدة الصف الفلسطينى ، بحيث تكون قيادة حرب التحريرالشعبية ، قيادة واحدة ، وليست أكثرمن ١٧ فصيل فلسطينى ، كما حدث بعد إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية. وأنْ تكون القيادة سرية وليست علنية ، كما أراد زعماء حماس الذين توهّموا صلاحية الجمع بين الحرب ضد إسرائيل والجلوس على كراسى السلطة ، وجمع الأموال من الاتحاد الأوروبى ومن النظم العربية التى تجمعها من شعوبها. ومنذ بداية المرحلة الرابعة للصراع (مايو١٩٤٨) حتى الآن ،

يُلاحظ أنه كلما تصاعد الخطاب العروبى الإنشائى ، كلما تفاقمتْ مأساة الشعب الفلسطينى ، فى نفس الوقت الذى تراكمتْ فيه انتصارات الدولة العبرية المعتدية. وهى الانتصارات التى تم تتويجها فى شهر يونيو / يونيو ١٩٦٧ بهزيمة أكثر من دولة واحتلال أجزاء من أراضيها فى أقل من ستة أيام . وهى الحرب التى قد يصعب تصديق روايتها بالنسبة لأجيال الألفية الرابعة ، وقد يحسبون روايتها من باب الأساطير أو الغيبيات أو الخرافات .

كما أغفل الإعلام العروبى – عن عمد – أنّ الدولة العبرية التى وصفها هذا الإعلام ب (الدولة المزعومة) احترمتْ العلم وامتلكته منذ اللحظات الأولى لإنشائها . وأنها بعد سنوات قليلة من اعتراف المجتمع الدولى بها امتلكتْ القنبلة النووية ، وأصبحتْ سادس دولة نووية فى العالم سنة ١٩٧٠ أى بعد ٢٢ سنة من قيامها (د. فوزى حماد- مجلة الهلال- يوليو ٢٠٠٢) كما تعتمد فى دخلها القومى على تصدير البرمجيات ، بل إنها تبيع طائرات تجسس بدون طيار لدول متقدمة تكنولوجيًا مثل فرنسا والصين . كما أنّ المقارنة بينها وبين الدول العربية فيما تنفقه من الدخل القومى على البحث العلمى تأتى لصالحها (د. نادرفرجانى- فى دراسة له بعنوان « العرب فى مواجهة إسرائيل- القدرات البشرية والتقانية»- بحث مكتوب على الآلة الكاتبة) كما تتفوق إسرائيل على العرب فى مجال التعليم تفوقًا ساحقًا ، سواء فى نسبة الإنفاق أو فى سنوات الدراسة (د. كمال مغيث- مجلة أحوال مصرية- العدد العاشر- خريف ٢٠٠٠) كما أنّ المستوى المعيشى للمواطن الإسرائيلى أكبر بنسبة ١٧ ٪ من المستوى المعيشى لبعض الدول العربية المنتجة والمصدرة للبترول . ورغم كل تلك الحقائق يُصر الإعلام العروبى على أنّ إسرائيل دولة هشة يسهل إزالتها من على سطح الكرة الأرضية ، بالتطبيق لمقولة إلقائها فى البحر الشهيرة.

ومن الأوهام أيضًا ذلك القول الملحاح الفج بأنّ إسرائيل هى الولاية رقم

(٥١) للولايات المتحدة الأمريكية. أى أنّ أنظمة الحكم فى إسرائيل تابعة وعميلة لأمريكا . وهو وهم شبيه بوهم إلقاء إسرائيل فى البحر، ذلك أنّ إسرائيل امتلكت كل مقومات الدولة العصرية المستقلة. ويكفى للتدليل على ذلك أنها تتجسس على أمريكا ، بل إنها أصبحت تؤثر فى صنع القرار الأمريكى . حقًا هناك مصالح مشتركة بين الإمبريالية الأمريكية وإسرائيل ، ولكن يجب النظر إلى هذه المصالح فى إطار علاقة ندية بين دولتين قويتين ، كل منهما لها أهدافها الخاصة ، وليس فى إطار أنّ دولة إمبريالية تفرض شروطها على نظام دولة عميل أو تابع كما تصوّر وروّج الخطاب الإعلامى / الثقافى العروبى .

كعب أخيل فى الدولة العبرية :

رغم أنّ إسرائيل أصبحتْ قوة نووية تستطيع إرهاب كل الدول المحيطة بها ، ورغم أنها أصبحتْ دولة معترفًا بها دوليًا منذ قرارالتقسيم عام ٤٧ وإعلان الدولة فى مايو ٤٨ ، الأمر الذى يصعب تجاهله لوضع نهاية لمأساة الشعب الفلسطينى ، ورغم أنها أصبحتْ دولة متقدمة فى مجالات التعليم والبحث العلمى والتصدير ومستوى المعيشة إلخ ، رغم ذلك فإنّ إسرائيل تعانى من صراع حاد يكاد يقسمها نصفين : صراع يقف فى إحدى جبهتيه الآيات / الحاخامات الذين يتشبثون بالمرجعية الدينية العبرية ، وأنّ بنى إسرائيل هم شعب (يهوه) المختار ويحق لهم إبادة غيرهم من الشعوب ، ولهم حق طرد كل سكان الأرض لإقامة مستوطناتهم . وأنّ كل موضع تدوسه بطون أقدامهم هو حق إلهى لبنى إسرائيل إلخ . وعلى الجبهة الأخرى يقف العلمانيون الإسرائيليون الذين يرفضون المرجعية الدينية العبرية ، ويستهدفون إقامة دولة علمانية ديموقراطية ، يتساوى فيها الجميع وفقًا لحق المواطنة، لاوفقًا للانتماء الدينى . ويرفضون التوسع على حساب أراضى الغير وفقًا لتعاليم الإله العبرى المنحاز لبنى إسرائيل ، وبالتالى فهم مع إقامة الدولة الفلسطينية .

إنّ هذا الصراع تجسّد فى السنوات الماضية فى أكثرمن مشهد : فقد رفضتْ

ألوميت شالومى التى كانت وزيرة التعليم ، الإنفاق على المدارس الدينية ، بل إنها امتلكتْ شجاعة الإعلان (وهى وزيرة مسئولة) بأنّ الجولان أرض سورية. حقًا تصدّتْ لها جبهة الآيات / الحاخامات وأرادوا عزلها من منصبها وخروجها من الوزارة ، ولكن ما حدث هو أنه تم إبعادها عن وزارة التعليم وتعيينها وزيرة للمواصلات . ثم جاء بعدها (يوسى ساريد) وزير التعليم آنذاك ليكمل مسيرتها . حقًا مازالتْ جبهة الآيات / الحاخامات تهاجمه ، واتكأ الهجوم على مرجعية الديانة العبرية ، وذلك عندما شنّ الزعيم الروحى لحزب شاس الدينى الحاخام (أوفاديا يوسف) هجومًا حادًا ضد وزير التعليم (يوسى ساريد) الذى كان يرأس حزب ميرتس اليسارى . وانصبّ هجوم الحاخام على أنّ (يوسى ساريد) مثله مثل (فرعون) الظالم الطاغية وأنه عنصرى . وقال الحاخام أيضًا إنّ فرعون نفسه لم يتخذ إجراءات كتلك التى يريدها (ساريد) الذى يكره التوراة (الأهرام ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٠ ص ٤) ورغم ذلك فإنّ (ساريد) وقف بصلابة ووراءه تيار كبير من العلمانيين فى تحدٍ واضح لجبهة الحاخامات .

ومشاهد الصراع بين الآيات / الحاخامات والتيار العلمانى كثيرة ، مثل الخبر الذى نشرته صحيفة الأهرام نقلا عن وكالات الأنباء حيث جاء به ((تصاعد الجدل الذى يُمزق المجتمع الإسرائيلى منذ أكثر من شهر بشأن الإصلاحات العلمانية واسعة المدى التى طرحها إيهود باراك (رئيس الوزراء آنذاك) بهدف تقليص الهيمنة الدينية للمتطرفين اليهود . وتقليص سلطة الحاخامات على شؤون الحياة اليومية فى إسرائيل . وسيطرتهم على الحياة الخاصة. والزواج والطلاق وتربية الأطفال . وتشير استطلاعات الرأى إلى أنّ المجتمع الإسرائيلى منقسم بين مؤيد ومعارض بشأن الإصلاحات العلمانية التى يريدها باراك . وأنّ تلك الإصلاحات وتعثر عملية السلام يجعلان مستقبل باراك فى مهب الريح . وذكرتْ وكالة أسوشيتدبرس أنّ باراك يعتزم تسيير المواصلات العامة فى عطلة السبت خلال

شهرين ، وحذف الهوية الدينية من البطاقات الشخصية وإلغاء وزارة الأديان ، وكلها إصلاحات تواجه معارضة شديدة من جانب الحاخامات والأحزاب الدينية)) (أهرام ١٩/ ٩/ ٢٠٠٠ ص ١) .

إنّ باراك فى هذا المشهد قدّم الدليل العملى على أنه مع التيار العلمانى الذى يسعى إلى تأسيس دولة مدنية عصرية بديلة لدولة الحاخامات الدينية التى يحلمون بإقامتها .

ولأنّ الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى صراع متصاعد ، فليس من قبيل المصادفة أنْ يتزامن الطرح الجريىء الذى عزم رئيس الوزراء (آنذاك) على عرضه على الكنيست يوم ٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٠ فى سبيل تدعيم مقومات الدولة العلمانية ، مع المشهد التمثيلى الهمجى الذى نفذه الجنرال شارون يوم ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠ عندما اقتحم المسجد الأقصى وهو يعرف جيدًا رد فعل العرب والمسلمين نظرًا لقداسته فى معتقداتهم الدينية .

بعد ذلك يأتى المشهد الثالث وهو تراجع باراك عن آرائه التى تُدعم قواعد علمنة مؤسسات الدولة ، وذلك بعد تهديد حزب شاس الدينى بالانسحاب من الائتلاف الحاكم . وفى تعليقه على هذا المشهد كتب أ. بيومى قنديل ((يُخطىء القوميون الإسرائيليون خطأ جسيمًا اذا وقفوا مكتوفى اليدين أمام صعود الأصوليين اليهود إلى منزلة من يُقررما ينبغى للدولة العبرانية. أو لزموا الصمت إزاء ما يرتكبه هؤلاء الأصوليون ضد الفلسطينيين من أعمال عنف يندى لها جبين الإنسان . فالأصوليون اليهود لا يُهددون بإبادة الفلسطينيين لكونهم فلسطينيين ، بل لأنهم مختلفون ، ولسوف يستدير هؤلاء الأصوليون انطلاقًا من نفس الأساس كى يُنزلوا سائر الإسرائيليين الذين يُخالفونهم الرأى أو حتى الزى إلى القبول إما بالانصياع أو القتل)) (صحيفة الأخبار٢/ ١١/ ٢٠٠٠) وقد تأكد صدق تحليل المرحوم أ. بيومى قنديل ، إذْ بعد عدة أسابيع من نشر مقاله ، نشرت صحيفة الأهرام الخبر التالى :

((... لعلّ الصورة التى نقلتها بعض شبكات التليفزيون العالمية من داخل إحدى المستوطنات الإسرائيلية تُلخص الاتجاه السائد فى غيرها ، فقد وقف المستوطن (شريجرفيشر) وسط أقرانه وقال « إنّ دماء المستوطنين ليست دماء حمراء مثل بقية الإسرائيليين فى تل أبيب ، بل تختلف »)) (أهرام ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٠ نقلا عن أ. عاطف الغمرى ص ١٠) .

إنّ الصراع بين الجبهتيْن : جبهة الآيات وجبهة العلمانيين ، صراع دراماتيكى . وأنّ الفائز فى نهاية الصراع هو الذى سيُشكل استراتيجية السياسة الإسرائيلية فى المنطقة. فإذا فاز الآيات ومعهم جنرالات العنف والدم والإبادة ، فلابد من تنفيذ مشيئة الإله العبرى القائمة على سلب أراضى الغير والتوسع فى الاستيطان وإبادة السكان الأصليين . ولابد أنْ يُصاحب ذلك الهجوم على الحضارة المصرية. وهوما يفعله الآيات / الحاخامات ، إذْ يُشبّهون أى طاغية فى إسرائيل بأنه مثل (فرعون) مصر الطاغى المستبد إلخ (بالضبط كما يفعل الأصوليون المسلمون فى مصر، ومعهم كثيرون من كتاب الأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية ، وكثيرون من الشعراء إلخ) كما أنّ الحاخامات يواصلون مسلسل التزوير، وذلك بإدعاء أنّ بنى إسرائيل هم بناة الأهرام وهم الذين شيّدوا بمجمل إنجازات الحضارة المصرية. وقد فعلها مناحم بيجين وأعلنها مرة فى كامب ديفيد ومرة ثانية فى مصر تحت سفح الأهرام عندما قال: ((إننى أشعربالزهو والفخر وأنا جالس وسط الأهرامات التى بناها جدودى)) ووصل التزوير لدرجة أنّ القناة الفضائية الإسرائيلية تضع ثلاثة أهرامات رمزًا لها . هذا بخلاف الأفلام الروائية والتسجيلية والأفلام الموجهة للأطفال .

اليهود فى التراث الإنسانى :

لقد ظللتُ لعدة سنوات أفرق بين اليهودية والصهيونية ، بمراعاة أنّ الأولى دين والثانية مذهب سياسى عنصرى ، ولأنّ الدين يدخل فى إطار حق الاعتقاد ،

فيجب بالتالى احترام معتنقيه . أما الصهيونية ، فلأنها تستهدف الاستيلاء على أوطان الغير، فيجب بالتالى مقاومتها ، إلى أنْ قرأتُ ما كتبه مؤرخون وعلماء أوروبيون (موسويون ومسيحيون) عن اليهود فى الدول الأوروبية . وإجماع هؤلاء المفكرين على كراهة الشعوب الأوروبية لليهود . وبدأ السؤال يكبر فى رأسى : ما هى أسباب كراهية الشعوب الأوروبية لليهود ؟ واكتشفتُ أننى لم أتعمق (أو لم أتوقف) أمام الصورة المزرية لليهود فى كتابات المبدعين ، مثل وليم شكسبير فى مسرحيته الشهيرة (تاجر البندقية) أو جيمس جويس فى رائعته (عوليس) إضافة إلى العلماء والمؤرخين الذين أكدوا على أنّ الشعوب الأوروبية احتقرتْ اليهود وعاملتهم بقسوة وصلت لدرجة حد الإبادة ، مثلما فعل الرومان فى مذبحة (تيتوس) الشهيرة. ومثلما أجهز عليهم (هارديان) فى مذبحة نهائية ، ومثلما أحرق الصليبيون اليهود فى معبدهم عندما استولوا على القدس عام ١٠٩٩ م . واذا كانت الأمثلة كثيرة فإنّ السؤال هو : لماذا هذا الموقف من اليهود؟

ذكر العالم ألبرت أينشتاين فى كتابه (حول الصهيونية- خطابات ورسائل) الصادرعام ١٩٣١ ((إننا ندين إلى اللاسامية بالمحافظة على وجودنا واستمرارنا)) أما الفيلسوف سارتر فقال فى كتابه (اليهودى واللاسامية- بحث فى علم أسباب الحقد) الصادرعام ١٩٤٨ ((إنّ العامل الوحيد الجامع بين اليهود هو عداء المجتمعات المحيطة بهم وكراهيتها لهم)) أما المفكر الكبير كارل ماركس فقد لخص (رغم أنه موسوى الديانة) أسباب كراهية الشعوب الحرة لليهود فى سبب رئيسى هو أنّ اليهود رفضوا أنْ يعيشوا فى مجتمعاتهم كمواطنين ، لأنّ تمسك اليهود بالديانة اليهودية تغلّب على ((الجوهر الإنسانى الذى كان ينبغى أنْ يربطه- بوصفه إنسانًا- بسائر الناس)) وانتهى ماركس فى تحليله الأخير إلى أنّ خلاص البشرية من اليهود ، بل والتحرر الاجتماعى اليهودى نفسه ، إنما هو ((تحرير المجتمع من اليهودية)) وأنّ التحرر اليهودى فى معناه الأخير ((يقوم فى تحرير الإنسانية من اليهودية)) وفى الفقره

الأولى من الصفحة الأولى كتب ((المال هو إله إسرائيل المطماع . ويعتقد اليهود أنه لاينبغى معه لأى إله أنْ يعيش . إنّ المال يخفض جميع آلهة البشر ويجعلهم سلعًا . المتاجرة بالمال ، هذا هو الإله الحقيقى لليهود)) (دار مكتبة الجيل اللبنانية- بدون سنة نشر- ص ٣ ، ٣٨ ، ٥٥ ، ٦٣) .

وكتب الفيلسوف الفرنسى فولتير عن التاريخ اليهودى القديم ((فى البداية تشتتتْ قبائل إسرائيل العشر ثم سيقتْ القبيلتان الأخيرتان إلى أسر بابل . هذه إذن النهاية التى آلتْ إليها تلك العجائب المذهلة كلها ، والتى زعموا أنّ (يهوه) صنعها ليهوده . وينظر الحكماء المسيحيون بألم وأسى شديديْن إلى النوائب التى ألمّتْ بآبائهم ، الذينْ أعدوا لهم طريق الخلاص . أما أتباع مذهب الشك ، فينظرون بفرح خفى إلى إبادة شعب كامل تقريبًا ، هو الشعب الذى يرون أنه حامل لأبشع المعتقدات الخرافية وأدنى أشكال العهر والبغاء وأكثر ضروب السلوك البشرى وحشية ودموية)) (نقلا عن كتاب « التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير» تأليف ليو تاكسل – ترجمة د. حسان ميخائيل إسحاق- طبعة خاصة- ص ٤٦٢) وكتب سيجموند فرويد (رغم أنه موسوى الديانة) : ((ليس بوسع أى مؤرخ أنْ ينظر إلى القصة التى ترويها التوراة عن موسى والخروج بأكثر من أنها أسطورة دينية ، قلبتْ إحدى الروايات البعيدة لمصلحة اتجاهاتها .. ولكننا لانستطيع أنْ نبقى بغيراكتراث عندما نجد أنفسنا فى تعارض مع البحوث التاريخية اليقظة لعصرنا .. ومن المؤكد أنّ (يهوه) كان إلهًا بركانيًا ، وكما نعرف فإنّ مصر تخلو من البراكين)) وأكد على أنّ اليهود أخذوا عادة ختان الذكور من مصر، ورغم الشواهد التى تؤكد أنها عادة مصرية ، فإنّ اليهود بذلوا ((كافة الجهود الممكنة لفصلها عن مصر. ولا يمكن تفسير الفقرة المحيرة فى سفرالخروج ، المكتوبة بأسلوب غيرمفهوم ، وتقول إنّ الله كان غاضبًا على موسى لإهماله الختان ، وأنّ زوجته المديانية أنقذت حياته بإجراء عملية ختان سريعة ، إلاّ أنها تناقض متعمد للحقيقة الكاشفة.. لتوجيه ضربة

حاسمة إلى الأصل المصرى لعادة الختان . وقيل: إنّ (يهوه) طلبها إلى إبراهام من قبل وأقامها كعلامة على الميثاق المضروب بينه وبين نسل إبراهام ، وهذه- على أى حال- بدعة حمقاء بوجه خاص)) (انظر: كتابه «موسى والتوحيد» ترجمة عبدالمنعم الحفنى- مطبعة الدارالمصرية- ط ٢ – بدون سنة نشر- ص ٨٤ ، ١٠٩ ، ١٣٥) .

أما العالم والمفكر الإيطالى جيوردانو برونو الذى أحرقته القساوسة الأتقياء حيًا مع مطلع عام ١٦٠٠ لأنه كان ينادى بأنّ على البشرية أن تتبنى ديانة مصر القديمة لأنها مؤسسة على التعددية والتسامح الفلسفى (أنظر : لويس عوض فى كتابه «ثورة الفكر- فى عصر النهضة الأوروبية»- مركز الأهرام للترجمة والنشر- عام ٨٧ عدة صفحات) هذا العالم الكبير (برونو) كتب عن اليهود قائلا إنهم ((بلا شك فضلات الحضارة المصرية. ولايستطيع أى إنسان أنْ يُقنع أحدًا بأنّ المصريين قد أخذوا عن اليهود أى من مبادئهم ، سواء كانت صالحة أم لا.. إنّ مصر مبدعة الكتابة والآداب ، أساس كل تراثنا وشرائعنا)) (نقلا عن مارتن برنال فى كتابه الموسوعى « أثينة إفريقية سوداء»- مجموعة مترجمين- المجلس الأعلى للثقافة- عام ٩٧ ص ٢٨٦) .

وكتب العالم (ليوشتراوس) أنّ الفيلسوف الهولندى اسبينوزا (١٦٣٢- ١٦٧٧) ابتعد عن اليهودية . وأنّ هدفه الأساسى فى دراسته (البحث اللاهوتى السياسى) هو((تحرير المسيحية من تراثها اليهودى)) أما العالم (كاسير) فقد أكد على ابتعاد (اسبينوزا) عن التراثيْن الدينيْن اليهودى والمسيحى معًا . وهوالأمرالذى أغضب الحاخامات اليهود على (اسبينوزا) فقرّروا طرده من الطائفة اليهودية ، وبالتالى انفصاله عنها طوال حياته منذ أنْ كان فى الرابعة والعشرين من عمره حتى وفاته. وأنه لم يتراجع عن موقفه ، ولم يحاول فى أى وقت أنْ يسترضى السلطات الدينية اليهودية. وفى كتابه المهم عن (اسبينوزا) كتب المفكرالكبيرد. فؤاد زكريا أنّ (اسبينوزا) رفض بشدة فكرة امتياز شعب على بقية الشعوب . وفى هذا السياق

كتب إسبينوزا ((لايوجد على الإطلاق فى الوقت الحالى أى شىء يستطيع به اليهود أنْ يباهوا به غيرهم من الشعوب . أما استمراراليهود كل هذا الوقت بعد تشتتهم وضياع ملكهم ، فليس فيه ما يدعو إلى العجب ، إذْ أنهم قد انفصلوا عن كل أمة إلى حدٍ جلب عليهم كراهية الجميع . وعن التعصب الدينى المؤسس على أحادية الفكر كتب إسبينوزا أنه ((لا الكاثوليكية ولا اليهودية يحق لها أنْ تدّعى احتكارالحقيقة لنفسها . ومن الممكن الإتيان دائمًا ، فى كل حالة تلجأ فيها إحدى العقائد إلى الحجة القائلة بقدرتها على البقاء ، بأمثلة أخرى لعقائد مخالفة لاتقل عنها قدرة على البقاء ، ولكنْ لا هذه ولاتلك يحق – كما قلنا – أنْ تدعى لنفسها احتكارالحقيقة. ولاحظ العالم (لامبرت دى فلتهويزن) فى الرسالة رقم ٤٢ الموجهة إلى إسبينوزا أنّ الأخير ((أنكرفكرة اختيار اليهود أو تفضيلهم على بقية الأمم . وأكد على أنّ ممارسة الفضائل الأخلاقية ، أجدى من ممارسة شعائر العقيدة اليهودية)) وفى نص مهم ذكرإسبينوزا أنّ السعادة الحقيقية لكل إنسان تكون - فقط – من قدرته على فعل الخير، وليس فى مباهاته بأنه هو وحده القادرعلى فعل الخير دون سواه من البشر. إنّ سعادة الإنسان الحقة لاتكون إلاّ فى الحكمة ومعرفة الحقيقة ((وهى لاتكون أبدًا فى شعوره بأنه أحكم من الآخرين . أو بأنّ الآخرين يفتقرون إلى مثل هذه المعرفة ، فمثل هذه الأمور لا تزيد من حكمته ، وعلى ذلك فإنّ كل من يغتبط لأسباب كهذه ، إنما يغتبط لتعاسة الآخرين ، وبذلك يكون خبيثًا وشريرًا)) وكان تعليق د. فؤاد زكريا أنه ((حتى لو كان اليهود ممتازين عن غيرهم بحق ، فإنّ تباهيهم بهذا الامتياز يكفى لجعلهم أشرارًا ، إذْ أنّ المرء يسعد بتمتعه بالخير، لا بإدراكه أنّ الآخرين محرومون منه. هنا نقد أساسى لفكرة (الشعب المختار) مبنى على القول بأنّ الفكرة ذاتها ليست مما تشرف به أية أمة أو يفخر به أى فرد يعرف معنى الأخلاقية ، إذْ أنها تنطوى على مقارنة فيها حط من شأن الآخرين ، وليس الحط من شأن الآخرين من شيم الفضلاء حقًا ، فضلا عما تتضمنه الفكرة من أنانية واضحة تظهرفى الاغتباط

بافتقار الآخرين إلى السعادة التى يتمتع بها هذا الشعب ذاته. والأنانية صفة بعيدة كل البعد عن الفضيلة الحقة. وبعبارة أخرى ففكرة (الشعب المختار) فكرة مناقضة لذاتها ، لأنّ من بلغ أسمى درجات الفضيلة ، لن يجد لذة فى تأكيد تميزه عن الآخرين ، ولأنّ مجرد النظر إلى الآخرين على أى نحو ينطوى على الحط من شأنهم ، معناه أنك لم تعد كامل الفضيلة ولم تعد « مختارًا »)) ومن آراء إسبينوزا المهمة أنّ الدين (أى دين) ينبغى أنْ ينفصل عن مؤسسات الدولة. وأنّ الدولة مبنية على عقد بشرى ، وسلطتها مستمدة من سيادتها ، لا من الأوامر الإلهية. وفى الدولة اليهودية القديمة ، خلط اليهود بين السلطتين الإلهية والزمنية بعد أنْ ولوا موسى على أساس أنه هو المعجزة الإلهية بينهم . واختاروا خلفاءه على أساس هذا التقرب إلى الله. وبعد أنْ نقلوا (حقهم) إلى الله ، اعتقدوا أنّ دولتهم تنتمى إلى الله ، وأنهم هم أنفسهم أبناء الله ، ونظروا إلى الأمم الأخرى على أنها عدوة الله ، وعاملوها بكراهية شديدة . وكتب د. فؤاد زكريا ((هكذا كان إسبينوزا الذى مرّ بتجربة التربية اليهودية. واستوعب الثقافة اليهودية استيعابًا تامًا حتى طُرد . كان إسبينوزا أقدرالناس على تشخيص العلل الحقيقية فى نفسية اليهود : كراهية الشعوب الأخرى التى غدتْ جزءًا من طبيعتهم . ورفض الاندماج فى أى بلد آخر أو إبداء فروض الولاء له . والخلط بين السلطة الإلهية وسلطة الحكم فى دولتهم القديمة ، وهو خلط لابد أنْ ينعكس أيضًا على دولتهم الحديثة ، ولو صدر مثل هذا الكلام من شخص غير يهودى لأصبح موقعه فى تاريخ الفكراليوم فى قمة (أعداء السامية) وهذا بالفعل ما اتهمتْ به الطائفة اليهودية إسبينوزا فى أثناء حياته ، ولكنه بعد وفاته بقرنين أو ثلاثة ، أصبح فجأة ، فى نظر معظم شراحه اليهود ، مدافعًا عن التراث اليهودى ، ومتعلقًا بالأمة اليهودية . وزُيّف العلم وشُوّهتْ الحقيقة ، لكى يُضم إلى التراث اليهودى مفكر كان عظيمًا بحق ، ولكن أعظم ما فيه كان تحديه لكل تراث سابق عليه)) (د. فؤاد زكريا – كتابه عن اسبينوزا – دار النهضة العربية – القاهرة –

١٩٦٢- من ص ٣٥٧- ٣٦٩- ومن لايستطيع العثور على هذا الكتاب ، عليه أنْ ينظر الكتيب الذى صدر كملحق لمجلة (إبداع) العدد ١٢ - خريف ٢٠٠٩ - تحرير وتقديم الشاعر د. حسن طلب) .

***

لقد قفزتُ باعتقادى قفزة واسعة ، وانتقلتُ من ضرورة التفرقة بين اليهودية والصهيونية ، إلى عدم الفصل بينهما. وأنّ الثانية ما هى إلاّ تتويج للأولى أو(على نسق الصيغة الماركسية) أنّ الصهيونية أعلى مراحل اليهودية. وأنّ تشبث اليهود ب (درع اليهودية) كان من الحتم أنْ يقابله رفض مفهوم (المواطنة) وأنّ رفض اليهود الفرنسيين الانتماء لفرنسا الوطن ، ورفض اليهود الألمان الانتماء لألمانيا الوطن.. إلخ كان سببه تمسك اليهود بالمرجعية الدينية ، لتنفيذ مشيئة الإله العبرى بضرورة العودة إلى (أرض الميعاد) ومن هنا نشأتْ ظاهرة (الجيتو) فى المجتمعات الأوروبية. وبسبب إصرارهم على فكرة (الجيتوهات) ورفضهم الاندماج والانتماء (الوطنى) تجمّعوا ونجحوا (يجب الاعتراف بذلك) فى تكوين أكبر(جيتو) بعد استيلائهم على أرض الشعب الفلسطينى ، أى أنّ اليهودية تحوّلت من عقيدة دينية إلى مذهب سياسى ثم امتزجا فصارا كوجهىْ العملة ، لا انفصام ولا انفصال بينهما ، وكان اسم هذه العملة (الصهيونية) وبالتالى فإنه لاخلاص للبشرية (ولليهود أيضًا كبشر) من هذه النزعة الصهيونية ، إلاّ عبرتحريرالإنسانية من اليهودية ، كما تنبّأ ماركس بحق ، وهو ما يفعله التيارالعلمانى فى إسرائيل .

***

روّج البعض لمقولة أنّ يهود القرن العشرين بعد الميلاد ، غير يهود القرن العشرين قبل الميلاد على أساس الصفات التشريحية الجسمانية ليهود اليوم ، أى على أساس العامل الأنثروبولوجى ، أمثال د. جمال حمدان ، د. عبدالوهاب المسيرى (انظركتاب: «اليهود أنثروبولوجيًا » تأليف الأول وتقديم الثانى- كتاب الهلال-

فبراير٩٦) إنّ محاولة د. جمال حمدان وغيره ، محاولة مُضللة وعبثية لاطائل من ورائها فى الرد على الأصوليين اليهود المتمسكين بأرض الميعاد ، وأنّ الجهد الضائع فى مسألة الصفات التشريحية ، كان يجب أنْ يتجه إلى التعصب المؤسس على المعتقد العقيدى ومرجعيته الدينية ، وقد تأكد ذلك من الخبر الذى نشرته صحيفة الأهرام عن مراسلها فى باريس أ. أحمد يوسف الذى نقل ما ذكرته مجلة (لونوفيل أوبزرفاتور) أنّ هناك انشقاقًا حادًا بين اليهود فى فرنسا حول القضايا الرئيسية التى تمس وجودهم ومنها تعريف اليهودى نفسه.. من هو؟ وقالت المجلة: إنّ حاخامات فرنسا وكهنتها وعلى رأسهم جان كاهان رئيس المجمع المركزى اليهودى ، يُطالبون اليهود بأنْ يكون ولاؤهم الأول لدينهم وبالتالى لإسرائيل قبل أنْ يكون لوطنهم الذى يعيشون فيه (أهرام ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٠ ص ١ ، ص ٤) .

يذهب اعتقادى أنّ خلاص الشعب الفلسطينى والدول المجاورة لإسرائيل ، من الصهيونية المؤمنة بالتوسع والاستيطان ، لن يكون إلاّ بدعم وتأييد التيارات العلمانية فى بلدانها ، ولن يكون إلاّ بالتفوق على إسرائيل فى مجالات البحث العلمى والتعليم والتصدير والمستوى المعيشى وصناعة السلاح ذاتيًا ورفع الوصاية من على الشعب الفلسطينى ، وذلك بدعمه ليخوض حرب السلام بعد أنْ فات وقت حرب التحرير الشعبية على الطريقة الفيتنامية.

وفى كلمة واحدة فإنّ دعم التيارات العلمانية فى إسرائيل وفى الدول المحيطة بها ، هو السبيل الوحيد لهدم المشروع الصهيونى ، وهو المشروع الذى يتبناه الأصوليون اليهود داخل إسرائيل وخارجها . فهل تقبل الدول التى لها مصلحة فى التخلص من المشروع الصهيونى التحدى ، من أجل مستقبل أفضل لسكان المنطقة ؟ أم تظل على سياستها الحالية المتمثلة فى العداء لمبادئ العلمانية. والمتمثلة (كذلك) فى العداء لمعنى الانتماء الوطنى لصالح الانتماء الدينى ، الأمر الذى يؤدى إلى تدعيم الأصولية فى بلدانها وفى إسرائيل ؟ ومع ملاحظة أنّ التصدى للأصولية اليهودية لابد وأنْ

يتزامن ويرتبط بالتصدى للأصولية فى البلاد المحيطة بإسرائيل التى تساند وتُدعم هذه الأصوليات . وتكمن الخطورة فى أنّ الأصوليين فى إسرائيل وفى البلاد المجاورة لها يتشابهون فى الكثير من المعتقدات والمنطلقات ، لعلّ أخطرها أنْ يكون الولاء للدين وليس للوطن .

obeikan.com

الفصل الثاني

نبوءات الليبراليين المصريين حول المخطط الصهيوني

من المحاور التى تحظى باتفاق أغلب الباحثين فى مشروع النهضة المصرية ، أنّ المثقفين المصريين منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين ، ساهموا فى وضع أسس الدولة المدنية العصرية الحديثة ، وذلك من خلال دفاعهم عن مبادئ الليبرالية الفكرية. ووضع دستور يُحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين. والدفاع عن الحريات السياسية والفردية. والدفاع عن حرية المرأة كإنسان مشارك فى الحياة الاجتماعية. والدفاع عن التعليم المدنى العصرى المؤمن بالبحث العلمى بلا أية حواجز وبلا أى سقف يحد من انطلاقه. وأنّ (النقد الحر) هو أساس التعليم السليم . ورفض فكرة الخلافة. وإصدار العديد من الصحف والمجلات الثقافية التى أثرتْ الحياة الفكرية .

ولكننى اكتشفتُ من خلال قراءاتى فى صحف ومجلات تلك الفترة ، أنّ المثقفين المصريين لم يكتفوا بإثارة القضايا الفكرية والفلسفية التى تبذر بذور التنوير كأساس من أسس النهضة ، ولم يكتفوا بعرض أحدث النظريات العلمية فى مجال

العلوم الطبيعية (بيولوجيا ، فيزياء ، ميكانيكا الكم إلخ) أوفى مجال العلوم الإنسانية (فلسفية ، نفسية ، اقتصادية إلخ) وإنما كانت لهم فى الكتابات السياسية تحليلات عميقة ، كانت تصل أحيانًا لدرجة التنبؤ بالمستقبل .

فى عدد أمشير/ فبراير١٩٢٩ من مجلة العصور التى كان يُصدرها المفكر الكبير الأستاذ إسماعيل مظهر، مقال للأستاذ عمر عنايت بعنوان (المدنية اليهودية المستقبلة) فى بداية المقال بدأ برصد ظاهرة سيطرة ((المال اليهودى الآخذ بخناق العالم والمسيّر لأموره ، دون أنْ يبدو لأنظار العامة ، رغم أنّ الخاصة ترتجف كلما فكرتْ فى تزايد السطوة والجبروت اللذين لابد سيلازمان هذه السيطرة الآخذة فى الزيادة)) ثم أكد على أنّ اليهود هم الذين استفادوا من القلق الاقتصادى الذى نتج عن الحرب العالمية (الأولى) وأنّ الذى ربح الحرب هو نفوذ اليهود دون سواهم واستثمروه خيراستثمار)) .

وفى الفقرة التالية يتضح مدى وعيه ومتابعته لأخبار السياسة الدولية ودور اليهود فى صنعها فكتب ((وإنك إذا بحثت كل حركة هدامة أومجددة فى الوقت الحاضر، تجد أنّ محورها الدعاية اليهودية ، الأمر الذى يمكننا مشاهدته متجليًا فى مرقعين : أولا : فى روسيا . وثانيًا : فى فلسطين ، فاليهود يريدون أن يُشيّدوا فى فلسطين نقطة ارتكاز يُوجّهون منها جهودهم حيث شاءوا وحيث يجدون فائدة. إنّ فلسطين ليست غير العش الذى ستولد فيه المدنية اليهودية المستقبلة)) بعد هذا التوصيف لدور اليهود فى صناعة السياسة الدولية فى كل من روسيا وفلسطين ، يُفاجأ القارئ بأول نبوءة من نبوءات أ. عمر عنايت والتى تحققتْ بالفعل ، إذْ كتب ((يشعر الصهيونيون أنهم فى حاجة إلى حماية أقوى دول العصر حتى تثبتْ أقدام مدينتهم الجديدة ، وعندئذ يكون من أيسر الأمور عليهم إزالة تلك الحماية بفضل مالهم ونفوذهم . وبريطانيا نفسها تشعر بنمو الصل اليهودى تدريجيًا بين أحضانها ، وعبثًا تحاول أنْ تُزيل عنها ويلاته المستقبلة ، مع علمها بأن إمبراطوريتها ستكون

أول من يتحمل صفعات اليهود المميتة)) .

وهذا ما حدث بحذافيره : اليهود اعتمدوا على بريطانيا العظمى ، وحصلوا منها على وعد باغتصاب أرض الشعب الفلسطيني المستقر، لشعب رفض الاستقرار من خلال منظومة الولاء الوطني ، المنظومة المتعارف عليها لدى الشعوب المستقرة . أما اليهود فقد فضلوا منظومة الرابطة الدينية. ومنذ وعد بلفورعام ١٩١٧ وحتى عام التقسيم ١٩٤٧ ظلتْ بريطانيا تُساند اليهود الذين أعطوا ظهورهم لها واتخذوا من واشنطن قبلة الولاء الجديدة ، بعد أنْ تأكدتْ حقيقة أنّ الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة العظمى الأولى فى العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. ورغم المعونات الضخمة التى حصلتْ عليها إسرائيل من أمريكا تدورالأيام فتتجسس الأولى على الثانية. بل وتتحداها فى الكثيرمن القرارات، وتتعامل معها بندية ، لدرجة بيع تكنولوجيا متقدمة لبعض الدول ، رغم اعتراض الإدارات الأمريكية .

والأستاذ عنايت فى تحليله لمتغيرات السياسة الدولية وتوقعات المستقبل رأى أنّ فلسطين هى مركزالشرق الأدنى فى المستقبل . ومن خلال متابعته لما يُنشر فى الصحف العالمية ذكّر القارئ ببعض المشروعات التى يتم التخطيط لها ومدى تأثيرها على المنطقة العربية فى المستقبل فكتب ((هناك مشروع لمد أنابيب النفط من الموصل- أغنى الأقطار فى النفط – إلى ثغر حيفا الفلسطيني ، وستتصل بغداد بحيفا بالقضبان الحديدية وبالطيارات وبالسيارات ومن يدرى ما يُخبئه الغيب من المخترعات والمكتشفات الغربية)) وبعد الكلمة الأخيرة ، وبدون أية فواصل ، سجّل نبوءته التحذيرية الثانية إذْ نصّ على ((فإنّ فلسطين- ولوأنها لم تصربعد- فستكون يومًا ما- رضى الإنجليز أم غضبوا- ملكًا لبنى إسرائيل . واذا قلنا بنى إسرائيل فنحن نتكلم عن أمة موحدة المرمى ، كثيرة المال ، لها رأس يُفكر. لذلك ستصرعلى أنْ يكون لها الفصل فى الهيمنة على مركز فلسطين الاقتصادى أولا، ثم

سيأتى الوقت الذى يلتفتُ فيه اليهود إلى الهيمنة السياسية والتوسع أيضًا)) وأظن أننى لستُ فى حاجة إلى أى تعليق على هذه النبوءة التحذيرية التى أطلقها أ. عنايت عام ١٩٢٩، والتى تحققتْ بعد أنْ احتلتْ إسرائيل سيناء لعدة سنوات، ومازالت تحتل كل الأراضى الفلسطينية وبعض الأراضى الأردنية والجولان السورية.

أما نبوءته الثالثة فهى عن تأثيرالدعاية اليهودية لصالح إسرائيل، بعد أنْ تكون دولة معترفًا بها دوليًا فكتب ((سنسمع يومًا من الأيام أنّ حيفا هى عروس البحرالمتوسط، وأنها أكبر محطة للطيران، يحط فيها كل من يطير من الشرق إلى الغرب وبالعكس)).

وفى نبوءته الرابعة- وكأنه يمتلك آلة سحرية، لم يتوصل العلم إليها بعد- مثل بللورات ألف ليلة وليلة- كتب عن مصر ومستقبلها إذا لم تنتبه لخطورة المخطط الصهيونى، فنصّ على ((يجب أنْ نتطلع إلى ذلك اليوم، فإنه سيكون الحد الفاصل بين عهدين: عهد مصر الذهبى وعهدها المظلم، فبعد ذلك اليوم ستكون مصر كمية مهملة وستكون عضوًا أثريًا فى مملكة داود الجديدة)).

ولأنّ الثقافة المصرية فى تلك المرحلة الليبرالية من تاريخ مصر، كانت مزدهرة وفى حالة نشاط وتفاعل دائمين، كتب أ. عبدالحكيم عبدالله الجهنى مقالا فى العدد التالى (برمهات / مارس ١٩٢٩) بدأه بتحية رئيس التحرير أ. إسماعيل مظهر؛ لأنه نشر مقال أ. عمر عنايت. ورأى أنْ يُضيف بعض المعلومات عن المخطط الصهيونى، ومنها اقتراح مستر(ود جوود) العضو بمجلس العموم البريطانى الذى طلب فيه من مصر((أنْ تنزل لفلسطين عن سيناء)) وأشار إلى أنّ اليهود يُرسلون بعض الأساتذة والأحبار إلى طورسيناء ((ليقوموا بتنقيبات عن التركة الموسوية هناك حيث كان التيه وكان المن والسلوى، وحيث يُقال: إن بعض المهندسين اليهود تمكنّوا خلال الحرب العظمى (الأولى) من استكشاف أنّ الجدب فى سيناء ليس إلاّ أكذوبة قارحة. وأنه توجد تحت الطباق الرملية مجار للمياه ومنابع للخصوبة)).

بعد ذلك تكلم عن أهمية الموقع الجغرافى لفلسطين ، وعن إمكانية إقامة مشروعات صناعية وزراعية بها . ثم أشار إلى المعلومات التى تتناقلها الصحف العالمية عن خطط اليهود فى المنطقة مثل ((مشروع (روتنبرج) الكهربائى العظيم ومشروع البحر الميت الكيمائى الزاخر، ومشروع ميناء حيفا ، واقتراح بإنشاء قناة جديدة تُقرّبُ قناة السويس بين البحر الأبيض المتوسط وخليج العقبة)) ثم ربط بين الفاشستية والصهيونية ، وإذْ أكد اتفاقه مع أ. عنايت رأى أنّ المخططات الصهيونية والفاشستية تضع ((مصر أمام امتحان دقيق)) .

***

قد ينبهر البعض بهذا الوعى السياسى الذى تحققت نبوءاته المحذرة والمتشائمة ، وقد يرى آخرون أنّ نبوءة أ. عنايت الرابعة مبالغ فيها وأنّ مصر لا يمكن أنْ تكون كمية مهملة فى مملكة داود الجديدة ، ولكننى أرى أنّ هذه النبوءة تحقق منها الكثير وذلك بمراعاة ما يلى :

فى عام ١٩٧٠ أصبحتْ إسرائيل الدولة النووية السادسة فى العالم (د. فوزى حماد- مجلة الهلال- يوليو ٢٠٠٢) أى بعد ٢٢ سنة من الاعتراف الدولى بإنشاء دولة جديدة باسم إسرائيل.

طبقًا لتقرير (العلم فى العالم) الذى تُصدره منظمة اليونسكو، يُعد تمويل البحث العلمى فى الدول العربية من أكثر المستويات انخفاضًا ، فقد بلغ الانفاق العلمى نسبة إلى الناتج المحلى الاجمالى ١٤أ. ٪ فى الدول العربية عام ١٩٩٦ مقابل ٢أ٥٣ ٪ عام ١٩٩٤ لإسرائيل .

متوسط دخل الفرد فى إسرائيل ١٧ ألف دولارًا سنويًا يُعادل نظيره فى دولة أوروبية وسطية ، فى حين أنّ متوسط دخل الفرد فى مصر يتراوح بين ٥٠٠- ٧٠٠ دولارًا . وورد فى تقرير التنمية البشرية لمصر الصادر عن معهد التخطيط القومى

(المصرى) أنّ ٢٣ ٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر وأن ٢٥ ٪ فقراء نسبيًا (محمود المراغى – أهرام – ٢٨/ ٩/ ٩٩ – ص ١٠) وفى تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة ، عن عام ٢٠٠٩ والذى يُشارك فيه مصريون وعرب ، ورد فيه أنّ ٤٢ ٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر، حيث يحصلون على أقل من خمسة جنيهات يوميًا .

شاركتْ إسرائيل فى مشروع الجينوم البشرى وفى نقل الرائحة عن طريق الكمبيوتر ، وزوّدتْ طائرات الحلفاء فى حملة البلقان بأنظمة توجيه كمبيوترية. وتُشارك حاليًا فى شبكة الردع الصاروخى (د. هشام الحديدى- أهرام ٤/ ٦/ ٢٠٠١ ص ١٠) فى حين أنّ مصر لاتُنتج ساعة يدولا موتور موتوسيكل أو حتى موتورغسالة عادية .

فى حديث لوزير التعليم (المصرى) د. حسين كامل بهاء الدين قال : إنّ تكلفة إعداد التلميذ بالتعليم الأساسى فى مصر يوازى ١٧٠ دولارًا وهذا الرقم فى إسرائيل ٣٥٠٠ دولارًا (نقلا عن د. يحيى الجمل- أهرام ١٦/ ٧/ ٢٠٠١ ص ١٠) .

فى عام ٢٠٠٠ كان الناتج المحلى الإجمالى للفرد فى إسرائيل يفوق نظيره فى البلاد العربية كلها (د. نادرفرجانى- أهرام ١٩/ ٥/ ٢٠٠٢ ص ٢٦) .

ورد فى إعلان المبادئ الصادر عن القمة العالمية لمجتمع المعلومات (جنيف ٢٠٠٣ ، تونس ٢٠٠٥) أنّ الدول العربية (كلها) تُخصص لميزانيات البحث العلمى ما لايزيد عن نصف فى المائة من إجمالى الناتج القومى ، وهى نسبة تكاد تكفى رواتب الموظفين ، بينما تُخصص كوريا الجنوبية ٢,٥ ٪ وإسرائيل ٣٪ والولايات المتحدة الأمريكية ٣٪ من إجمالى الناتج القومى . كما تؤكد الاحصائيات كذلك أنّ الدول العربية تُنتج فى مجال المعرفة ، وإصدارات الكتب – تأليفًا وترجمة – حوالى ستة آلاف عنوان فى السنة ، ويبلغ نصيب العلم فيها أقل من ٢٪ . ولاتزيد إصدارات الترجمة عن ٣٥٠ عنوانًا فى السنة فى كل الدول العربية (٢٧٠ مليون

نسمة) بينما تُصدر إسرائيل حوالى ٤٥٠ عنوانًا مترجمًا فى السنة ، وتُترجم إسبانيا (٣٨ مليون نسمة) أكثر من عشرة آلاف عنوانًا فى السنة ، مع الاهتمام بالعلم (نقلا عن الأستاذ شوقى جلال فى كتابه «أركيولوجيا العقل العربى – البحث عن الجذور» الصادر عن دار العين للنشر – عام ٢٠٠٩ ص من ص ١٦٩ – ١٧١) .

واذا كان المثقفون المصريون حذروا فى عام ١٩٢٩ من مخططات اليهود لإنشاء قناة جديدة تُقرّبُ قناة السويس بين البحر الأبيض المتوسط وخليج العقبة ، فإنّ هذا التحذير لم يتوقف أمامه أحد ، بينما لم تتوقف محاولات إسرائيل المستمرة لتحقيق هذا الحلم ، إذْ ((فى المنتدى الاقتصادى العالمى بالأردن الذى عُقد عام ٢٠٠٣ تكلمتْ وفود الأردن وإسرائيل بالبدء فى تنفيذ مشروع قناة البحرين الأحمر والميت فيما سُمى خطة تطوير وادى الأردن لحماية بيئة البحر الميت ، علمًا بأنّ المرحلة الثانية من هذا المشروع سوف تصل إلى البحر المتوسط ، وهكذا جاءت الفكرة الأردنية على طبق من ذهب لإسرائيل ، وقيل وقتها : إن هذا المشروع اذا تم تنفيذه فسوف تخسر مصر ما بين ٢٥ – ٣٠ ٪ من دخل قناة السويس ، أى مليارد ولارًا .... إلخ)) (الأستاذ سيد على – أهرام ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٣ ص ٣) .

فى الوقت الذى غزتْ فيه إسرائيل العالم بمنتجاتها الزراعية والصناعية ، وتُصدّر تكنولوجيا متقدمة لدول أعرق منها ، فإنّ مصر تستورد حوالى ٨٠ ٪ من غذائها ، بل إنّ القمح (وهو سلعة إستراتيجية) فإنّ مصر تستورد أكثر من ٦٠ ٪ من احتياجاتها منه . وفى عام ٢٠٠٤ – وفق تصريح د. حسن خضر وزير التموين آنذاك، فإنّ ما تم استيراده من القمح الأمريكى (فقط) وصل إلى ٥٤ ٪ من حجم احتياجات مصر (أهرام – ٤/ ٤/ ٢٠٠٤ ص ١٧) .

وسط ذهول العالم المتحضر والشجب العربى الأثير دمّر الطيران الإسرائيلى يوم ٧/ ٦/ ٨١ المفاعل النووى العراقى .

فى تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣ الصادر عن الأمم المتحدة ، وهو

التقريرالذى يضع ترتيب الدول وفق معاييرالمستوى المعيشى وحجم الإنفاق على التعليم والبحث العلمى والصحة إلخ كان ترتيب إسرائيل السابع (على مستوى العالم) من حيث الإنفاق العام على الصحة. والمركزالثانى من حجم الإنفاق على التربية. وفى الترتيب العام احتلتْ إسرائيل المرتبة رقم ٢٢ بينما مصر جاء ترتيبها فى المؤخرة مع الدول المتخلفة وقبعتْ عند الرقم ١٢٠ (عبدالعاطى حامد – أهرام ١٤/ ٧/ ٢٠٠٣ ص ٨).

أثناء التوقيع على معاهدة السلام فى كامب ديفيد قال مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل آنذاك أمام الرئيس السادات ردًا على سؤال من أحد الصحفيين عن سيرالمحادثات ((لقد عانيتُ فى المحادثات كما عانى جدودى فى بناء الأهرامات)) وبعد التوقيع جاء إلى مصر، وتحت أقدام (أبوالهول) قال ((إننى أشعر بالفخروأنا جالس أمام الأهرامات التى بناها جدودى)) ولم يفتح أحد فمه بكلمة على هذا الادعاء الكاذب ، لافى الكامب ولافى مصر، لا من الرئيس (المصرى) ولامن حواريه ولا من غيرهم .

تضع إسرائيل الأهرام الثلاثة كشعارلإحدى قنواتها الفضائية. وتُنتج العديد من الأفلام التى تُروّج لأكذوبة أنّ بنى إسرائيل هم الذين أسسوا الحضارة المصرية. وفى هذا السياق تُشجّع كل من يكتب ويُروّج لأكاذيب أخرى ، مثل أنّ النبى موسى هو أخناتون ، وأنّ المصرى الكبير(يويا) هو النبى يوسف . وحتى الآلات الموسيقية التى اخترعها جدودنا المصريون القدماء ، فإنّ صحيفة معاريف الإسرائيلية فى ملحقها الفنى كتبتْ أنّ هذه الآلات صناعة يهودية (عبيرالشرقاوى- صحيفة القاهرة ١٩/ ٤/ ٢٠٠٥ ص ١٥) ونتيجة استسلام الثقافة السائدة فى مصر لهذا الهوان ، وصل الأمر لدرجة أنْ تعرض القناة الثانية (المصرية) فى التليفزيون (المصرى) فى برنامج عن الفن ، وتكون المصيبة الكبرى ؛ حيث إن الموسيقى المصاحبة للبرنامج عبارة عن توزيع جديد لنشيد (ها تحياه) وهوالنشيد الوطنى

الإسرائيلي (من رسالة المهندس خالد زينهم إلى بريد الأهرام ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٣) .

استعانتْ وزارة الزراعة المصرية (بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد) بخبراء إسرائيليين ، فكانت النتيجة تدمير العديد من المحاصيل الزراعية وتدمير صناعة الدواجن وصناعة النحل .

ولعلها واحدة من سخريات القدر ومآسيه أنْ تفوز ست جامعات إسرائيلية من بين أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم ، بينما تم استبعاد كل الجامعات المصرية ، مع مراعاة الفارق بين الدولتين ، فى العمر وفى الحضارة .

الحقائق المذكورة بعاليه هى مجرد أمثلة على صعود بنى إسرائيل المعاصرين ، وهو صعود يعكس أو يُترجم مشهد التردى المصرى (والعربى) لذلك يذهب ظنى إلى أنّ أ. عنايت لم يكن مبالغًا عندما تنبّأ عام ١٩٢٩ بأنّ مصر ((ستكون كمية مهملة وعضوًا أثريًا فى مملكة داود الجديدة)) ولم يكن مغاليًا عندما حذر من أنّ فلسطين ستكون ((ملكًا لبنى إسرائيل)) ومع ذلك فهو يختم نبوءاته برسم صورة للمقاومة تتمثل فى ((أنْ نقف وجهًا لوجه مع اليهود . نكون أمة يُخشى جانبها ولو جزئيًا . أما اذا اضطرتنا الظروف إلى الاندماج فى النهضة (السامية) فنكون قد قمنا بقسط غير صغير فى تشييد المدنية المقبلة. العلم والثروة هما السلاحان الواجب التسلح بهما لمواجهة المستقبل . فهل نحن فاعلون ؟)) .

واذا كانتْ الثروة متوفرة ، فما هى أسباب عدم استخدامها لإقامة قاعدة علمية تكون هى الأساس للتنمية ولمواكبة احتياجات العصر؟ ولماذا لا نتعلم من تجارب الشعوب المتحضرة مثل الشعب الصينى والشعب الهندى إلخ ؟ وهل السبب أنّ هذه الشعوب (قبل امتلاك الثروة والموارد الطبيعية) تؤمن بأنّ الاعتزاز بالذات القومية هو بداية التقدم ومجابهة كل الصعوبات ، بينما افتقدنا نحن المصريين هذا الإيمان بذواتنا ؟ أسئلة تتطلب شجاعة نقد الذات إذا أردنا ((التسلح لمواجهة المستقبل)) فهل نحن فاعلون ، كما قال عمر عنايت عام ١٩٢٩ ؟

obeikan.com

الفصل الثالث

أخطر شرخ في جدار المجتمع الإسرائيلي

من الكتب المهمة التى تعرّضتْ للتيارات الدينية داخل المجتمع الإسرائيلى ، كتاب د. رشاد عبدالله الشامى (القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة) الصادرعن سلسلة عالم المعرفة الكويتية- يونيو ١٩٩٤) واذا كان من الشائع أنّ الحركة الصهيونية التى تزعمّتْ وخططتْ لتجميع يهود العالم فى (مكان ما) يكون بمثابة وطن لهم ، بدأتْ على يد هرتسل(١٨٦٠ - ١٩٠٤) وبصفة خاصة عند محطة المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧ ، فإنّ المؤلف يؤكد على أنّ التفكيرفى الاستيلاء على أرض الشعب الفلسطينى بدأ قبل ذلك بأكثر من ٥٠٠ سنة إذْ عندما زار الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون القدس عام ١٣٢٧ ((وجد بها يهوديّيْن اثنيْن فقط ، فقرّر آنذاك الدعوة للاستيطان اليهودى فى فلسطين)) (ص ٩٥) ومن بين الصهيونيين الذين كانوا يأملون فى إعادة بناء طائفة يهودية فى فلسطين الحاخام عقيبا يوسف من مدينة براسبرج ، الذى هاجر إلى فلسطين عام ١٨٧٠ من أجل أنْ يُقيم فيها طائفة يهودية (ص ٢٧) وفى عام ١٩٠٤ هاجر الحاخام إفراهام يتسهان إلى فلسطين وأصبح حاخامًا لمدينة يافا (ص ٣٣٣) .

وعن تأثير المرجعية العبرية فإنّ حزب (مفدال) الدينى عارض فى برنامجه الانتخابى أى مشروع ((يتضمن تنازلا عن أجزاء من أرض إسرائيل التاريخية ، أرض جدودنا)) (ص ١٠٩) ومحاورهذا الحزب السياسية والدينية تتضمن أنْ ((لاتقوم بين البحر ونهر الأردن إلاّ دولة واحدة هى دولة إسرائيل ، أى رفض إقامة دولة فلسطينية. وأنّ القدس هى من الآن وستبقى إلى الأبد عاصمة لدولة إسرائيل ، واستمرار حركة الاستيطان فى كل أجزاء أرض فلسطين بما فى ذلك الضفة الغربية (يهودا والسامرة) وقطاع غزة ، وأنّ هضبة الجولان جزء من دولة إسرائيل ، غير قابل للسلخ عنها . وشجبْ الحكم الذاتى الفلسطينى واعتباره خطرًا على إسرائيل ، لأنه يمكن أنْ يؤدى إلى نشوء دولة فلسطينية)) (ص ١١٢ ، ١١٣) ولذلك فإنّ حزب المفدال الدينى يُعارض بشدة حزب العمل ؛ لأنه انحرف يسارًا فى مجال الدين والدولة. وعقد حلفًا مع الاصلاحيين ، ويقف متساهلا من قضايا الاستيطان فى الأراضى المحتلة)) (ص ٢٢٩ ، ٢٣٠) .

ومن الأمثلة العديدة التى ذكرها المؤلف عن تيارات الصهيونية الدينية القائمة على التوسع الاستيطانى ، موقف الحاخام (صموئيل حاييم لانداو) الذى كتب العديد من المقالات هاجم فيها موقف اليهود الأرثوذكس السلبى من الصهيونية. وأكد على أهمية الاستيطان فى أرض إسرائيل ، لأنّ الإقامة فى الأرض المقدسة هى أحد الأوامرالدينية ، وأنّ ((القبس الإلهى لا يؤثر فى الشعب اليهودى إلاّ وهو فى أرضه. وعليه لايمكن اعتبار إسرائيل أمة حية وهى تعيش فى المنفى)) ورفع شعار(التوراة والعمل) وأكد أنه لايمكن أنّ تولد التوراة من جديد دون العمل ، وكذلك لايمكن أنْ يولد العمل كقوة مبدعة فى بناء الأمة من جديد دون التوراة التى هى جوهرالانبعاث)) أما الحاخام (مائيربرإيلان) فيرى أنّ الشعب والدين اليهودى يختلفان كل الاختلاف عما عداهما من الشعوب والديانات ، فالثورة والتقاليد الدينية ليست من صنع الإنسان ، بل هى قوانين إلهية. وكما يهتم الدين

اليهودى بشؤون العبادة ، فإنه يُنظم شؤون الدولة. فليس هناك فى اليهودية فصل بين الدين والدولة. واليهودية تحتوى على كل الشرائع المطلوبة لتسيير شؤون الدولة (ص ٩١ ، ٩٢) .

وكتب المؤلف أنّ الصهيونية الدينية استغلتْ مقولتيْن أساسيتيْن يؤمن بهما عامة اليهود ، وهما الشعب المختار ، وأرض الميعاد . وأنّ الحاخام موشيه بن نحمان (١١٩٤ – ١٢٧٠) فى تفسيره للتوراة أضفى طابعًا من القداسة على أرض فلسطين، فاعتبر أنها (مركزالعالم) وأنّ أورشليم هى مركز(أرض إسرائيل) وأنّ هذه الأرض هى المكان المناسب والوحيد لتأدية الوصايا الدينية المنصوص عليها فى التوراة. ووصل تأثير رجال الدين على عقول اليهود فى أوروبا لدرجة أنْ ((أصبح رفض أحد الزوجين الذهاب إلى أرض إسرائيل والعيش فيها مبررًا كافيًا – حسب الشريعة– للزوج لطلب الطلاق • وأنّ مثل هذه الاجتهادات كانت من الأسباب التى دفعتْ بعض اليهود للهجرة إلى فلسطين)) (ص ٨٥ ، ٨٦) •

وهؤلاء الصهيونيون هاجموا هرتسل وأمثاله من دعاة الصهيونية السياسية ، لأنهم نادوا بأنّ الوطن المنشود لليهود لابد أنْ يُقام على أسس علمانية. وبالتالى فإنهم لم يغفروا لهرتسل أنه ((عندما زارالقدس انتهك العديد من الشعائرالدينية اليهودية، ليؤكد تميز نظرته اللادينية عن العقيدة الدينية• ولذلك يقول هرتسل فى كتابه (الدولة اليهودية) الصادرعام ١٨٩٦ ((سوف يقوم حاخامونا الذين نتوجه إليهم بنداء خاص بتكريس جهودهم وطاقاتهم لخدمة فكرتنا. وسوف يغرسونها فى نفوس الرعية اليهودية عن طريق الوعظ والارشاد من فوق منابرالصلاة)) ورغم ذلك فإنه يؤكد على ((لن نسمح بظهور أية نزعات ثيوقراطية (= دولة دينية) لدى سلطاتنا الروحية. وسوف نعمل على إبقاء هذه السلطات داخل الكنيسة والمعبد . فالمتسلطون الدينيون اذا حاولوا التدخل فى شؤون الدولة سوف يلقون مقاومة عنيدة وشديدة من جانبنا)) أما الكاتب الألمانى ماكس نورداو(١٨٤٩ – ١٩٢٣)

الزعيم الصهيونى وصديق هرتسل المقرب فكان مؤمنًا بأنّ التوراة ((تُعتبر كعمل أدبى أقل من أعمال هوميروس والكلاسيكيات الأوروبية وبأنها طفولية كفلسفة ومقززة كنظام أخلاقى)) (من ١٩ - ٣٠).

وقد يتساءل البعض عن هذا التناقض الظاهرى بين دعاة الصهيونية السياسية ودعاة الصهيونية الدينية. وعن تفسير هذا التناقض ذكر د. رشاد ((إنّ القارئ لفكر هرتسل ودعاة الصهيونية الآخرين، يصطدم بين الحين والآخر بعبارات تنضح بالعواطف الدينية، وتؤكد على الإيمان بطريق الآباء والأجداد والحنين إلى أرض التوراة. كما تكثر فى خطب هؤلاء الاقتباسات التلمودية، مما يوحى ببعض التناقض واللبس مع ما تبين لنا من علمانية هؤلاء القوم دعاة الصهيونية. فإذا علمنا أنّ هذه الاقتباسات والتصريحات الرنانة كانت من أساليب دعاة الصهيونية التى تطلّعتْ إلى الاستثمار الأقصى للدين، واستغلال القيمة الدعائية، والرصيد العاطفى الذى تمتلكه العقائد الدينية عادة، فى سبيل أهداف الصهيونية، زال اللبس واختفى التناقض)) (ص ٢٩).

وفى هذا الاتجاه كتب المفكر الصهيونى يعقوب سيركن أنّ ((إنكار التعاليم اليهودية لايضع الفرد خارج الجماعة. كما أنّ قبولها لايجعل الشخص يهوديًا. باختصار ليس من الضرورى أنْ يؤمن الفرد بالدين اليهودى أو بالنظرية الروحية العامة لليهود كى يُصبح جزءًا من الأمة)) وعلّق المؤلف قائلا ((ومعنى هذا أنّ الصهيونية العلمانية نظرت إلى اليهودية باعتبارها (فولكلور الشعب اليهودى) المقدس الذى لايمكن أنْ تخضع قيمه لأى نقاش أو تساؤل. ففكرة العهد بين الله والشعب الذى منح الخالق بمقتضاه الشعب (أرض فلسطين المقدسة) كانت بمثابة الأسطورة الشعبية ل (بن جوريون) ولكنه مع هذا استخلص منها برنامجًا سياسيًا. وقرّر حدود دولته مسترشدًا بمفاهيم العهد القديم التى لا يؤمن بها هو نفسه. ولكنه كان يتقبّلها (كأساطير شعبية يهودية) إنّ بن جوريون لم يكن يهمه إنْ كانت

واقعة (الوعد الإلهى) حقيقة أم لا، بل المهم أنْ تكون هذه الأسطورة مغروسة فى الوجدان اليهودى . ولذلك يجب أنْ تكون سارية المفعول ، حتى بعد أنْ ثبت أنّ الوعد المقطوع هو مجرد أسطورة شعبية ، ليس لها أى مصدر إلهى. وهكذا ارتكزتْ هذه الرؤية على أنّ الدين اليهودى هو التعبيرعن الإجماع ولذلك فإنها لاترى ضرورة لإثارة ما إذا كانت التوراة من أصل سماوى أو أرضى ، مادامتْ تُعبرعن هذا الاجماع الذى يجب أنْ يبقى سارى المفعول)) (٣٣، ٣٤) وعندما سئل بن جوريون عما اذا كان يؤمن بالله أجاب ((السؤال هو: من الله ؟ إنّ معظم اليهود يتصوّرونه رجلا عجوزًا ذا لحية طويلة. يجلس على مقعد وثير. ويعتقدون أنه تحدّث إلى موسى . لقد سمع موسى صوت إنسان فى قلبه. وبذلك عرف أنّ عليه أنْ يفعل مايفعل . بيد أننى أومن بوجود قوى مادية فحسب فى العالم)).

وعلّق د. رشاد قائلا ((بالرغم من هذه النظرة السلبية إلى الدين ، كان بن جوريون يُدرك أهمية استغلال الدين فى سبيل تدعيم الفكرة الصهيونية ، واجتذاب المهاجرين إلى فلسطين ، فأعلن ذات مرة « إنّ خلود إسرائيل يتميز باثنتين : دولة إسرائيل والتوراة» وفى مناسبة أخرى قال « على دولة إسرائيل أنْ تعتمد على نفسها وعلى إلهنا الذى فى السماوات» ولذلك فإنّ بن جوريون أخذ فى الحسبان الاعتبارات السياسية والحزبية ومسؤولية الدولة ونحى آراءه الشخصية جانبًا عندما بدأ فى وضع أسس التعايش بين المتدينين والعلمانيين . لقد كان بن جوريون يتطلع إلى بناء دولة عصرية ، حتى لو خالف كل ما ورد فى التوراة. وكان يؤمن بأنّ العمل الصهيونى هو الكفيل ببناء الدولة والمحافظة عليها وليست الغيبيات ، لأنه كان يعتقد أنّ الغيبيات انتهى دورها فى حياة اليهود منذ قيام الدولة)) وكتب بن جوريون بعد قيام الدولة ((على اليهودى من الآن فصاعدًا ألاّ ينتظر التدخل الإلهى لتحديد مصيره ، بل عليه أنْ يلجأ إلى الوسائل الطبيعية العادية مثل الفانتوم والنابالم)) وقال أيضًا ((إنّ الجيش الإسرائيلى هو خير تفسير للتوراة)) وكان يرى

أنّ للدين وظيفة عليه القيام بها وكفى . وهوماعبّرعنه عندما قال ((إنّ الدين هو وسيلة مواصلات فقط ، ولذلك يجب أنْ نبقى فيها بعض الوقت لا كل الوقت)) ولم يكن يرتاح للمتدينين لذلك قال : ((إنّ حياة اليهود لوتُركتْ للحاخامات لظلوا حتى الآن كلابًا ضالة فى كل مكان ، يضربهم الناس بالأقدام . ويحتمى اليهود من أقدام الأغلبية الساحقة لهم فى كل مكان بأحلام العودة إلى أرض الميعاد والأجداد وانتظارالمسيح الذى سيهبط عليهم من السماء ليُنقذهم ويقوم لهم بكل العمل ، بينما هم يُصلون الفجر والعشاء ويبكون ليلا ونهارًا)) (ص٥٣ ، ٥٤) .

وقبل إعلان دولة إسرائيل بثلاثة أيام فى ١٢ مايو ١٩٤٨ ثارتْ مناقشات حول صياغة مسودة إعلان قيام الدولة. حيث طلب بعض الحاخامات أنْ يتضمن النص فقرة توضح ((أننا حصلنا على الاستقلال بمساعدة الرب وبقوته الكبرى . وأنْ يتضمن النص الأخيراسم الرب والتأكيد على أنّ ((أرض إسرائيل خاصة بالشعب اليهودى بمقتضى الدين اليهودى ووعد الرب لإبراهيم أبينا)) هذه المطالب تلقتْ معارضة عنيفة من بعض الأعضاء. أما بن جوريون فقد اختتم المناقشة بقوله ((يبدو لى أنّ كل واحد ونحن جميعًا نؤمن كل حسب طريقته وحسب فهمه. إنّ اليهودية فيها إفعل هذا ولاتفعل هذا. أما كيف نؤمن فهذا لسنا مأمورين به)) (ص ٤٧ ، ٤٨) .

فى مقابل التيارات الدينية التى تؤيد الاستيطان الإسرائيلى وترفض أى حق للشعب الفلسطينى فى أرضه ، هناك تيارات دينية أخرى تخالف الأولى ، بل وترفض الصهيونية السياسية ، لدرجة الهجوم العنيف على مؤسسها (هرتسل) وأنصاره (ص٢٣) وفى الباب الثالث ركزد. رشاد على الأحزاب الدينية المسيحانية المعارضة لدولة إسرائيل . وهذه الأحزاب تنتمى إلى اليهودية الأرثوذكسية المتشددة. وهم يؤمنون أنّ الخلاص المسيحانى لايمكن أنْ يتم بوسائل بشرية ، سواء كانت هذه الوسائل المال أوالسلاح . وأنّ الذين يُسمون أنفسهم بالصهيونيين

ومساعيهم الرامية إلى تأسيس دولة قومية يهودية فى فلسطين ، تتنافى مع العقائد المتعلقة بانتظار مجيء المسيح فى اليهودية. وأنّ بناء مملكة إسرائيل لابد أنْ يتم على يد المسيح المنتظر، لدرجة أنْ يكتب أحد الحاخامات رسالة لصديق له عام ١٨٩٨ تضمّنتْ هجومًا حادًا على هرتسل وصفه فيها بأنه قادم من ((الجانب الملوث)) وأعلن المجلس الأمريكى لليهودية- وهو تنظيم مناوئ للصهيونية- ((إننا نعترض على إقامة دولة يهودية فى فلسطين أو فى أى مكان آخر، فتلك فلسفة انهزامية. لاتُقدّم حلا عمليًا للمشكلة اليهودية)) كما أنّ الأجيال المتتابعة من هذا التيار الدينى الرافض للصهيونية السياسية ، كانت ترى أنّ ((تحقيق هدف العودة سيكون على يد (يهوه القدير) نفسه الذى سيرسل المسيح المخلص للقيام بهذا العمل ، وليس ذلك من عمل شعب الله المختار كما نادتْ الصهيونية)) ويرى أعضاء (أجودات يسرائيل) أنّ الجهود لإقامة دولة يهودية فى فلسطين هى اعتداء على سلطة المسيح واستعجال للنهاية غير مرغوب فيه)) بل إنّ حركة (نطورى كارتا) رفضت الاعتراف بالصهيونية وبدولة إسرائيل حتى اليوم ، وذلك لأنّ هذه الدولة قامت على يد نفر من الكفرة الذين حرّفوا مشيئة الله بعملهم وتطاولوا على الرب بدلا من انتظار المسيح الموعود وتدخل الرب بصورة إعجازية ، فالمسيح المنتظر هو وحده القادر على إقامة الدولة ، حيث تكون مملكة الكهنة والقديسين)) ولذلك فإنّ غالبية هذا التيار لا يخدمون فى الجيش الإسرائيلى ولديهم شبكة تعليم خاصة بهم ويقيمون فى أحياء منفصلة عن الجمهور العلمانى ، بل إنّ أحداث النازية ((وفقًا لهذا المنظور بمثابة عقاب من الرب وقصاص من أولئك الذين انتهكوا وصايا التوراة وأوامرها وسعوا للتشبه بالأمم والانصهار بها أولا ثم بالتصميم على إنشاء دولة يهودية على غرار الدول الأخرى ثانيًا)) .

وبعد حرب يونيو٦٧ طرأ تحول على مواقف معظم الأحزاب الدينية الصهيونية وغير الصهيونية ، حيث اعتبرتْ هذه الحرب معجزة وإشارة ربانية

لبداية الخلاص المسيحانى ، ورغم ذلك انطلق صوت أحد الحاخامات ليؤكد أنّ ((دولة إسرائيل ككيان صهيونى هى تعبير عن الكفر والتمرد على إرادة الله ، ولذلك فهى ليست تعبيرًا عن الخلاص . ولكن من ناحية أخرى فإنّ أرض إسرائيل تحت السيادة اليهودية تنطوى على مغازٍ دينية ذات أهمية ، ولذلك تدعو حركة (حَبَدْ) إلى عدم التنازل عن أى من الأراضى التى احتلتْ عام ٦٧ وذلك من منطلق أحكام الشريعة الدينية. وفى المقابل فإنّ إحدى الجماعات الدينية عارضتْ هذا التفسير (الحبدى) وتساءل حاخامها ((كيف يقف الرب بجوار دولة كافرة وملحدة لتنتصر فى الحرب ؟)) ورفض كل التفسيرات الإعجازية والربانية لانتصار إسرائيل (من ص ١٢٥- ١٣٤) .

ويصل التناقض داخل التيارات الدينية لدرجة أنّ زعيم حركة (حبد) الحاخام مناحم شنيورسون الذى يعيش فى بروكلين بنيويورك ((لم يقم بأية زيارة لإسرائيل ولم تطأ قدماه أرضها ، ورفض بشدة الهجرة لإسرائيل رغم اعتقاده أنّ ((التوراة سبقتْ العالم)) كما ركز فى تعليماته على ((حب أرض إسرائيل)) ويرى أنه من دون هذا الحب لايمكن على الإطلاق فهم وتطبيق التوراة وإقامة الفرائض . ويرى معارضوه أنّ امتناعه عن الهجرة يعود إلى عدائه للصهيونية ومعارضته لوجود دولة يهودية قبل مجيء المسيح وإنكاره أنْ تكون دولة إسرائيل ممثلة ليهود العالم . وأنّ حبه ل (أرض إسرائيل) لايعنى اعترافه بدولة لإسرائيل التى تخالف أغلب نشاطاتها أحكام الشريعة. وهذا الحاخام كأى أصولى فى أى دين ((يسعى دائمًا للتوفيق بين التوراة والعلم . ويؤكد على غياب أى تناقض بينهما ، لأنّ الله خلق العالم حسب التوراة)) وكأى أصولى فى أى دين أيضًا ، عارض الإجهاض وتشريح جثث الموتى . كما انطلق من نظرة عنصرية فى تفريقه بين اليهود وغيرهم من الشعوب فكتب ((إنّ الفرق بين اليهودى وغيراليهودى هو من النوع الذى ينطبق عليه التعبيرالسائد (لاوجه للتشبيه) إذْ كيف يمكن البحث عن فرق بين شيئين من

مستويين مختلفين كليًا . ففى حين يجلس اليهودى فى المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسمى ، تقبع بقية الأمم فى الدرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف . وهكذا ترى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما ، فإنّ الجسد اليهودى يختلف كليًا عن أجساد بقية الشعوب وذلك من حيث أكلهم وشربهم وطينتهم . وأنّ التشابه فى الأجساد فى المظهر الخارجى فقط ، إذْ أنّ أصل أرواح شعوب العالم هو من طبقات النجاسة الثلاث ، بينما أصل أرواح بنى إسرائيل هو من الروح القدس)) .

وكتب د. رشاد أنّ هذا الحاخام رغم رفضه الهجرة لإسرائيل فإنه يُعتبر من الصقور السياسية ، إذْ يعتقد أنه بالنسبة للأراضى المحتلة لابد من استيطانها دون أنْ تؤخذ فى الحسبان ردود فعل العرب أو غضب الولايات المتحدة الأمريكية . ومن رأيه أنّ على إسرائيل أنْ تُبدى موقفًا صلبًا غير متساهل فى علاقتها بالولايات المتحدة)) وبعد حرب ٦٧ أعلن هذا الحاخام ((أنّ على إسرائيل ألاّ تُعيد بوصة واحدة من هذه الأراضى . ويعتب على المسؤولين فى إسرائيل أنهم لم يستثمروا حرب يونيو بصورة أفضل ، إذْ كان يجب عليهم الشروع فورًا بعملية استيطان واسعة فى هذه الأراضى الجديدة . وأنْ يغزو أراضٍ عربية جديدة واحتلالها ((لأنها ضرورية للمفاوضات المستقبلية ولأمن الدولة)) وقد تنبّأ هذا الحاخام بحرب ٧٣ إلاّ أنّ تحذيراته لم تؤخذ على محمل الجد فى إسرائيل . وذكر يوسى ساريد العضو اليسارى فى الكنيست إثر تدخل هذا الحاخام لإسقاط الائتلاف برئاسة حزب العمل سنة ٨٨ ، أنه من الجنون أنْ يتحكم هذا الحاخام فى مصير الحكومات فى إسرائيل من خلال سيطرته على طائفته)) وهذا الحاخام يُعارض منح حكم ذاتى للفلسطينيين بشدة وقال : ((إنّ مجرد التحدث عما يتصل بالحكم الذاتى فيه تدنيس للرب وتدنيس للمقدسات)) وردّد المقربون منه أنّ ((شامير لم ير بعد نهاية المعركة التى ستدار ضده بوحى من هذا الحاخام اذا ما استمر فى المضى قدمًا فى مشروع

الحكم الذاتى)) ويُكثر هذا الحاخام من الاقتباس من التلمود ويقول ((سوف تمتد أرض إسرائيل إلى كل بلاد العالم)) .

ركز مؤلف الكتاب د. رشاد الشامى على هذه الشخصية بمراعاة تأثيره فى اليهود ، ليس داخل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل فقط ، وإنما لأنّ هذا التأثير وصل إلى كل المناطق التى يوجد فيها اليهود فى العالم ، بل إنّ الزعماء السياسيين والكتاب اليهود من إسرائيل والعالم يحجون إليه. ويُحيط به خمسة وعشرون ألفًا من أتباعه بصورة دائمة. ويفرض عليه تزعمه لهذه الحركة اتخاذ مئات القرارات المهمة أسبوعيًا وتنظيم ميزانيات المؤسسات المختلفة التابعة للحركة والتى تُقدر بمئات ملايين الدولارات . ويقوم أتباعه بطباعة تصريحاته وخطبه وتوزيعها فى نشرات وكتب بعد ترجمتها للغات عديدة . وفى المعبد القائم بجوار غرفته فى بروكلين يعقد جلسات تعارف ويسمع صوته آلاف فى الغرف المجاورة بواسطة أجهزة تكبير. وتصل أقواله إلى عشرات الآلاف الآخرين فى صورة أفلام مصورة . ولذلك فإنه يحظا بمكانة رفيعة بين الجمهور المتدين فى إسرائيل . وله كذلك تأثير ملموس على شخصيات من الصف الأول فى إسرائيل ، حيث يُقيم اتصالات عن طريق المراسلات مع الوزراء وكبار الموظفين ، وبعضهم يستشيرونه فى موضوعات شخصية تمامًا كما يستشيرونه فى القضايا العامة. بل إنّ شخصية مثل شمعون بيرس وشخصيات عسكرية مثل إريك شارون وأهارون ياريف وزعيم الليكود السابق مناحم بيجين كانوا معتادين على أنْ يؤموا بلاطه ويمتثلون أمامه)) .

وترجع أهمية التناول العميق لهذه الشخصية من جانب مؤلف الكتاب د. رشاد الشامى ، أنه رغم هذه المكانة الأسطورية لهذا الحاخام ، فإنّ دعوته لاقتْ معارضة شديدة ، خاصة عندما أعلن أنه (المسيح المنتظر) وأنّ هذه المعارضة لم تأت من العلمانيين فقط ، بل كذلك من بعض الأوساط الدينية الذين انفجروا فى الضحك وقالوا : لقد أصبح هذا الحاخام مهوسًا وأنّ لديه خيالا خصبًا ، فهو مقتنع

بأنه المسيح . وزادتْ السخرية منه عندما صرّح بأنه يئس من محاولاته لاستقدام المسيح. وأنه قام بما يجب عليه عمله. ولذلك فإنه هو الأنسب ليكون المسيح المنتظر. وعندما سُئل البرفيسور يشعيا هوليفو عن رأيه فى هذا الحاخام قال إنه : ((إما مريض نفسيًّا أو محتال . فهو يزرع آمالا كاذبة فى قلوب الجماهير، لأنّ الإيمان بأيام المسيح كان يؤدى دائمًا للإبادة . وكل مسيح هو مسيح كاذب)) (من ص ٢٧٠- ٢٩٠) .

أما الحاخام (من سامطر) فقد نشر كتابًا عن المغزى الدينى والروحى لحرب ٦٧ . وكان نصب عينيه مشكلة أنّ الإحساس العام الذى ساد بين الدينيين وكذلك بعض غيرالدينيين ، أنّ الانتصار ينطوى على معجزة . وأنّ هذا الإحساس سوف يتسلل إلى معسكره . وقال : إنه اذا كان فى الانتصار معجزة دينية ، فإنّ الاستنتاج الذى يُستخلص هو أنّ الصهيونيين الذين لا يُحافظ معظمهم على الشرائع ، وهم جميعًا فى نظره (مخربو شعب إسرائيل) قد جاءهم الخلاص من السماء . ومعنى هذا هو أنهم صادقون ودولتهم ليست دولة كفار. وعن موقف هذا الحاخام وحزبه الرافض لدولة إسرائيل ذات الطابع العلمانى ، كتب المؤلف عنه أنه يرفض فكرة أنّ حرب ٦٧ وكل ما ترتب عليها ، إنما هو تعبيرعن مساعدة الرب لشعب إسرائيل ، لأنّ هذا الشعب من المارقين عن الدين ولايستحقون معجزة إلهية من الرب لمساعدتهم)) ويتفق أتباع حركة (نطورى كارتا) على معاداة الحركة الصهيونية والانعزال عن دولة إسرائيل ، لأنها قامتْ على يد نفر من الكفار الذين تحدوا مشيئة الله وإرادته بإعلان إقامة دولة إسرائيل بدلا من انتظار المسيح المنتظر المخوّل وحده بإقامة مملكة إسرائيل (من ص ٣١٣ – ٣١٧) .

ومن الأمورالتى يتوقف الباحث أمامها أنّ هذه الحركة أدانتْ غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ . كما أنه بعد أنْ صدرتْ قرارات المجلس الوطنى الفلسطينى عام ٨٨ والتى أعلنت قيادة فلسطينية فى الضفة والقطاع ، والاعتراف بإسرائيل عمليًا ، فإنّ جماعة (نطورى كارتا) أيّدتْ الإعلان عن قيام الدولة الفلسطينية. وفى نفس

الوقت احتجتْ على اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بإسرائيل . واذا كانت الغالبية العظمى من الأحزاب الإسرائيلية تعتبر الكفاح الفلسطينى المسلح إرهابًا ، فإنّ (نطورى كارتا) ترى أنّ هذا الكفاح مشروع . ويقول الحاخام موشيه هيرش ((نحن ضد سفك الدماء . وأيضًا منظمة التحرير الفلسطينية ضد سفك الدماء . ونحن نؤيد حق الفلسطينيين فى استرجاع ما أُخذ منهم بواسطة القوة)) (من ص ٣٢٠- ٣٢١) وقال أيضًا ((اذا كان هناك إهتمام وحرص من جانب الصهيونية تجاه اليهود ، فعليها إصلاح الظلم الذى سبّبته للشعوب الأخرى . وانتقد بقوة الحركات التى تحاول إجبار أتباعه على الخدمة فى الجيش الإسرائيلى وقال : ((إنهم يريدون انضمامنا إلى آلة الحرب ضد العدو الذى أوجدوه خدمة لمصالحهم ، ولتوسيع سيطرتهم على مناطق تابعة لشعوب أخرى)) (ص٣٢٤) ومن بين الأحزاب الدينية الأقل تطرفًا حزب (ديجل هتوراه) فذهب رئيسه بعد انتخابات عام ٨٨ إلى حد الموافقة ، ليس على الانسحاب من المناطق المحتلة فحسب ، بل على قيام دولة فلسطينية منزوعة السلاح . وأعرب عن استعداده لتأدية التحية لعلم هذه الدولة (ص ١٧٥) وأيضًا الحاخام سمحا بونيم رئيس مجلس كبار التوراة دعا عام ١٩٨٩ لإجراء محادثات سلام مباشرة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية (ص ٣٣٨) .

مخاطر الأصولية اليهودية على المجتمع الإسرائيلى :

هذه التناقضات داخل التيارات الدينية فى إسرائيل ، يواكبها تناقضات أخرى بين الأصوليين اليهود وبين العلمانيين . ويتمثل الصراع بين الطرفين فى الموقف من طبيعة الدولة التى ينشدها كل فريق . فبينما يرى العلمانيون أنّ المواطنين متساوون فى الحقوق والواجبات ، يرى الأصوليون العكس ويحرصون على التميز الذى يُهدد أى مجتمع . ومن أمثلة ذلك الموقف من المرأة ، حيث لايجوز زيارة النساء لحائط المبكى (ص ٧٨) ورفض السماح للمرأة باستخدام حمامات السباحة المشتركة (ص١٦٣) ويُحظر على

النساء لبس الملابس القصيرة أو الشفافة أو الخروج دون جوارب تُغطى الساقين . وعلى المرأة حلق رأسها ، وعدم خروج صوت غناء النساء خارج البيت (ص٢٩٤) وعندما تكون الزوجة فى فترة الطمث فلا يجوز أنْ ينام زوجها معها فى سرير واحد . واذا ناما فى سريرين منفصلين ، ولمس أحدهما الآخر، فهذا حرام (ص ٣١١) .

وقد أخذ التطرف الدينى مداه إلى درجة الضغط على الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لاستصدار تشريع يُحرّم تربية الخنازير. وقانون آخر ينص على قداسة يوم السبت ، حيث لا يجوز تشغيل المواصلات العامة وإغلاق المحلات العامة (عدا المطاعم والملاهى) وعدم القيام بأى عمل مهما كان فى مشروعات حيوية كثيرة ، مثل الموانى وغيرها ، والمحافظة على الطعام الدينى (الكاشير) وعدم تشريح جثث الموتى ، وعدم زواج أى كاهن من أية مطلقة (ص٦١ ، ٦٢) ووصل الأمر إلى درجة أنْ تشكّل داخل حزب (مفدال) الدينى تشكيل خاص بالمرأة أطلقوا عليه (كتلة المرأة المتدينة) (ص١٠٤) وعلى الرغم من أنّ كافة الإسرائيليين ملزمون بأداء الخدمة العسكرية الإجبارية لمدة ثلاث سنوات ، فإنّ أعضاء المدارس الدينية التابع لمجلس كبار(علماء) التوراة معفون من أداء الخدمة العسكرية. وأيضًا الوقوف بكل حزم ضد تجنيد النساء فى الجيش (ص ١٥٠ ، ٢٣٨) وفسّر كثيرون من السياسيين والعلمانيين الإصرار على الإعفاء من الخدمة العسكرية على أنه هروب من خدمة الوطن ، بحجة دراسة الدين ، وهو الأمر الذى جعل بن جوريون يُردّد دائمًا ((إننا نريد أمة من الجنود ، لا أمة من الكهنة)) (ص ١٥٨) .

ويتصاعد التطرف والتعصب إلى درجة أنّ أتباع الطائفة (الحريدية) واثقون من أنهم يملكون الحقيقة المطلقة فى فهمهم وإطلاعهم على الكتب المقدسة ، وأنّ طريقهم هو الطريق الصائب الوحيد . كما أنهم يستخدمون وسائل (الإكراه الدينى) والتدخل فى حياة الآخرين ، وكل الوسائل بالنسبة لهم مشروعة ، بما فى ذلك استخدام سلاح الاعتداء والمتفجرات ضد اليهود الآخرين الضالين . ويشنون حربًا

على الثقافة العلمانية للمجتمع الإسرائيلي . ويُهاجمون دور السينما وحمامات السباحة المشتركة والصحف العلمانية ، مما يُثيرعنفًا مضادًا من جانب العلمانيين ، ولكنهم لايرتدعون لاقتناعهم بأنهم يشنون حربًا مقدسة باسم الرب . ويُقاطعون مدارس ومعاهد تعليم اللغات الأجنبية. ويُصدرون تعليماتهم إلى أتباعهم بعدم الاشتراك فى انتخابات الكنيست أو الانتخابات المحلية. وعدم تناول أى طعام أو شراب غير مصرّح به من قِبل محكمة الطائفة. والإيمان القاطع بأنّ إقامة الدولة الصهيونية قبل قدوم المسيح المنتظر، إنما هو عقاب خطير من الله. وأنّ الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) تدنيس لأوامرالله وإهانة للتوراة ، لأنّ قوانينه تتناقض مع شريعة موسى .. إلخ (من ص ٣٠١ – ٣٠٤) .

مقاومة الأصولية الدينية :

فى مقابل التطرف الأصولى اليهودى ، فإنّ المجتمع الإسرائيلى يشهد أشكالا من المقاومة لتحجيم دور هذه التيارات التى تسعى إلى إقامة دولة دينية فى إسرائيل ، معادية للسلام وللعلم ولحقوق الإنسان ، من أمثلة ذلك بذلْ ((محاولات دائمة من أجل إفراغ الشريعة الدينية من مضمونها ،مثل عقد الزواج المختلط فى جزيرة قبرص ، وعقد الزواج دون اشتراك أى حاخام فى حالة المنع الدينى ، أو فى حالة رفض عقد طقوس الزواج الدينية. وتقوم المحاكم المدنية بدور مهم جدًا فى هذا الصراع ، حيث تتعرض أحكام الشريعة اليهودية (الهالاخاه) للانتقاد . ويتم التساهل مع كل محاولات الإلتفاف حولها وتجنبها ، والمثال الواضح على ذلك أنّ محكمة العدل العليا (الإسرائيلية) أقرّتْ مبدأ تسجيل من تزوّجوا مدنيًا أو مختلطًا

أو فى احتفال مدنى فى سجلات الزواج . كما حدّد المشروع فى القوانين المتصلة بالأحوال الشخصية أنّ أحكامه ملزمة لكل من المحاكم المدنية والمحاكم الدينية. مثلما حدث بالنسة لقانون (المساواة فى الحقوق السياسية للمرأة) الذى صدرعام ١٩٥١ حيث لم يلتفت إلى حكم المحكمة الربانية التى أقرّتْ بعدم توافق هذا

القانون مع أحكام الشريعة اليهودية. كما أنّ هناك قطاعًا من الجمهور الدينى نفسه لايعترف بالصلاحية الشرعية اليهودية لهذه المؤسسة الدينية بصورة نسبية. كما أنّ اعتراف الدولة ب (الحاخامية الرسمية) هو نوع من تحويلها إلى تنظيم تابع للدولة ، وبالتالى فهى خاضعة لإشراف محكمة العدل العليا التى تتدخل كثيرًا فى أحكام (الحاخامية) وفى انتخابات الحاخام الأكبر وتُخضع أعمال مجلس الحاخامية لإشرافها. وبالنسة للقوانين التى تتصل بأحكام (منع) وفقًا للشريعة اليهودية ، مثل أحكام يوم السبت وتربية الخنازير، توجد قوانين تسمح بتجاوزها . كما أنّ الدوائر الطبية اعترضتْ على الأصوليين الذين يرفضون تشريح جثث الموتى ، واعتبرتْ أنّ هذه المطالب فيها مساس بمستوى البحث العلمى والخدمة الطبية. كما أنّ المغالاة الأصولية أدّتْ إلى ارتفاع الأصوات التى تُطالب بأنْ يكون الزواج مدنيًا . وضرورة فصل الدين عن الدولة. وهذا المطلب يريد مؤيدوه ، ليس الفصل الرمزى بين دولة إسرائيل كدولة يهودية وبين التقاليد الدينية اليهودية ، بل يُطالبون أساسًا بالفصل على المستوى الرسمى والقضائى . وقد ترتب على ازدياد التوتر الدينى وازدياد تدخل رجال الدين فى شؤون الأفراد فى حياتهم اليومية ، ترتب على ذلك تكوين رابطة لمنع (الإكراه الدينى) تأسست عام ١٩٥٠ وقد أقامتْ هذه الرابطة فروعًا لها فى المدن الثلاث الكبرى . وفى عام ١٩٦٠ جدّدتْ الرابطة نشاطها بعد سلسلة من الأزمات الدينية وعلى الأخص بعد طرح مشكلة (من هو اليهودى ؟) وكثّفتْ الرابطة عملها فى خريف ١٩٦٣ حيث نظمتْ مظاهرة فى القدس ضد العنف المتزايد من المتدينين . وسارتْ فى هذه المظاهرات جماعات كثيرة من الشباب العلمانى وهم مسلحون بالعصى إلى حدود الأحياء الدينية. واذا كان نشاط هذه الرابطة تعرّض لاهتزازات كثيرة ، إلاّ أنّ تأثيرها كان كبيرًا ، وكانتْ رمزًا إلى حدٍ ما للاتجاه المتزايد من أجل خلق ثغرات عميقة بين المعسكرين الدينى واللادينى فى إسرائيل (ص ٥٩ ، ٦٤) كما أنّ إعفاء طلبة المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية مثار اعتراض ومقاومة دائمة من

الأحزاب العلمانية وبصفة خاصة اليسارية فى الكنيست (ص١٥٤) كما أنّ زعماء كل من المعراخ والليكود لا يحافظون على شرائع الدين ويأكلون لحم الخنزير علنًا فى المطاعم داخل البلاد وخارجها (ص٢٣٣، ٢٣٤).

وكتب الأديب الإسرائيلى عاموس عوز عن الشباب المتدين ووصفهم بأنهم ((حمقى ومجانين تحرقهم أنوارالنبوءة. أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم خُلقوا ليُصلحوا العالم. وكان كل واحد منهم يعتقد أنه هو نفسه (المسيح المخلص) المنتظرالذى سيخلص اليهود من آلامهم. وفى سبيل هذا الاعتقاد فهو على استعداد دائم لصلب معارضيه، ليصلب هو نفسه فى النهاية)) وأضاف ((من مفارقات القدر أنّ مليارات الدولارات التى تُقدّم سنويًا إلى تلك الدولة التى تقول بطاقة هويتها أنها ديموقراطية ومستنيرة وتقدمية، تصل إلى هذ المجتمع المغلق الذى زرته (زارالكاتب حى جيئولا بالقدس الغربية) والذى يوجد على غراره مجتمعات أخرى فى إسرائيل، تنتمى إلى عصورسحيقة. وتبدو- بالنسبة لها- القضايا اليومية فى الحياة الإسرائيلية- كالحرب والتضخم والرقابة وحزب العمل والهستدروت (اتحاد العمال) إلخ وكأنها رمال متحركة. أما الثابت لديها فهما هتلر والمسيح (من ص ٣٠٨- ٣١٠) هذا المشهد الذى رصده الأديب عاموس عوزالذى يتأسى فيه من تغلغل الأصولية الدينة، يستدعى إلى الذاكرة كما ذكرالمؤلف النظرة التى سادتْ الدولة الإسرائيلية فى سنواتها الأولى، التى كانت ترى أنّ الدين هو أمر متخلف لابد من محاربته (ص١١٩) ولعلّ هذا ما دفع الصحفى الإسرائيلى شالوم كوهين أنْ يناقش خطورة الأصولية الدينية التى تُهدد المجتمع الإسرائيلى فى كتابه (الرب برميل بارود – إسرائيل ومتطرفوها) (ص٣٧٩).

هذا الصراع بين التيارات العلمانية والتيارات الدينية المؤجج داخل المجتمع الإسرائيلى، غائب تمامًا عن خريطة الإعلام العربى، إذْ بينما يُحذر كثيرون من الكتاب الإسرائيليين من أنّ ((إسرائيل قد تتطور إلى دولة تفرض فيها المؤسسات

الدينية والدوائر الدينية طابعها بشكل عام فى مجالات الحياة)) فإنّ كاتبًا آخر يُخالف تلك النظرة فكتب ((على الرغم من الادعاءات بشأن (الصحوة الدينية) فليست هناك دلائل وحقائق تُشير إلى ازدياد حجم القطاع الدينى ، كذلك فإنّ البيانات الخاصة بعدد التلاميذ فى التعليم الدينى لا تُشير إلى هذا التحول (ص٤٠ ، ٤١) وكتب آخر((إنّ دولة إسرائيل ليست دينية وليست لادينية. ولكنها معروفة بين الجمهور على أنها لادينية. ومن الناحية الوظيفية فإنّ الدولة ومؤسساتها وخدماتها تُدار بشكل عام بما لا يتوافق مع شرائع الدين اليهودى . والجدير بالذكر أنه ليس فى الشريعة ولا لدى أصحاب الشريعة طريقة لإدارة خدمات الدولة المعاصرة مثل الجيش والشرطة والمواصلات إلخ . كما أنه ليس لدى علماء الدين أى اهتمام بهذه الأمور)) (ص٤٦) أما الباحثان (موشيه ليسك) ، (دان هوروفيتس) فكتبا ((إنّ أخطر صدع يُهدد الهوية الثقافية للمجتمع الإسرائيلى هوالصدع الدينى / العلمانى ، وهو من شأنه أنْ يزداد حدة فى المرحلة المقبلة أكثر من أى مرة فى الماضى . إنّ القطاع الحريدى وصل إلى قوة ديموجرافية واقتصادية ، جعلته قطاعًا مستقلا ذاتيًا . وهو يوجد بصورة استبدادية ويتلقى أموالاً من الحكومة . وأنّ هذا القطاع أصبح دولة داخل الدولة. وبالتالى فإنه يوجد فى إسرائيل شعبان لايمكن أنْ يعيشا معًا . والخطر الذى ينطوى عليه هذا الأمر هو إدخال الدين فى السياسة (ص٣١١ ، ٣١٢) .

أما هرتسل فهو عندما كان يُشجّع اليهود الأوروبيين على الهجرة إلى فلسطين قال لهم ((لدى خروجنا من مصر مرة أخرى ، لن ننسى خلفنا قدوراللحم)) وهوهنا يُذكّراليهود بموقف جدودهم الذين ندموا لأنهم استجابوا لكلام موسى وهارون وخرجوا من مصر وتذمّروا وعاتبوهما قائلين ((ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذْ كنا جالسين عند قدوراللحم ونأكل خبزًا حتى الشبع . فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تُميتا كل هذا الجمهور بالجوع)) (خروج ١٦ : ٢) والمعنى عند هرتسل كان مزدوجًا : فهو يقول لليهود المعاصرين له : إنكم لن

تجوعوا فى فلسطين كما جاع جدودكم بعد خروجهم من مصر. وكذلك فإنكم بعد استيطانكم أرض إسرائيل سوف تظلون أوروبيين . وهذا ما عبّرعنه عندما قال ((إنّ دولة اليهود سوف تُصبح بمثابة سويسرا صغيرة فى قلب الشرق الأوسط)) (ص١٨) ولكن ها هو الواقع يُكذب الصورة التى حلم بها وتمناها هرتسل ، إذْ تحوّلتْ إسرائيل بفضل الأصوليين اليهود الذين يسعون إلى مزيد من التوسع ورفض إقامة الدولة الفلسطينية ، ومعاداة أنصارالسلام ، وتهديد كل شعوب المنطقة بعدم الاستقرار، تحوّلتْ سويسرا الصغيرة فى قلب الشرق الأوسط فى حلم هرتسل ، إلى ساحة للقتال والصراع وعدم الاستقرار. وبينما يرفض الأصوليون فى إسرائيل وفى فلسطين وفى كافة الدول العربية نداء السلام ، لايعلو صوت فوق نعيق الغربان .

الفصل الرابع
الشخصية اليهودية والتراث العبري

ساعدتْ بريطانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية ، الصهيونية فى احتلال فلسطين . ولم يكتف اليهود بذلك وإنما مارسوا أبشع أنواع القتل وتشريد الفلسطينيين . وشنوا الحروب ضد شعوب لبنان والأردن وسوريا ومصر. إزاء هذه الإستراتيجية الدموية ، كان لابد من دراسة الشخصية اليهودية ، ولماذا تميل إلى العنف وترفض السلام ؟ للإجابة عن هذا السؤال ، كان الكتاب المهم (الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية) تأليف د. رشاد عبدالله الشامى – الصادرعن سلسلة عالم المعرفة الكويتية – العدد ١٠٢ – يونيو١٩٨٦ .

بدأ المؤلف كتابه بتأصيل مرجعية اليهود العقلية والنفسية ، المستمدة من التوراة . وضرب مثالا بموقف العبريين من المصريين القدماء ، وفقًا لما جاء فى سفرالتكوين ٤٧ عندما جاء يوسف إلى مصر، حيث استقبله الفرعون (= ملك مصر) وقال له : أبوك وإخوتك جاءوا إليك . أرض مصر قدامك . فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك . ليسكنوا فى أرض جاسان (الشرقية حاليًا) ماذا حدث بعد أنْ حصل يوسف

والعبريون على هذا الكرم ؟ كتب المؤلف أنّ فرعون مصر كلّفهم ((بالعمل كسائر المصريين فى الزراعة وصناعة البناء ، اللتين كانتا الصناعتين الرئيسيتين ، فاعتبروا هذا التكليف عبودية . وجعلوا (يهوه) إلههم يُنكّل بالمصريين فى صورة عمليات انتقامية بشعة ردًا على جميل الإقامة لخمسة قرون نعموا خلالها بخيرات مصر. وهى الخيرات التى ندموا على تركها عندما عانوا الأهوال والجوع والتشرد فى التيه)) (ص ١٢) .

إنّ هذا الندم جاء فى اعتراف اليهود الصريح ، إذْ ورد فى العهد القديم ((فعاد بنوإسرائيل ويكوا وقالوا من يُطعمنا لحمًا . قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانًا والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم)) بل إنّ بنى إسرائيل يُعاتبون إلههم وقالوا له ((أليس خيرًا لنا أنْ نرجع إلى مصر)) (عدد ١١ : ٤-٦ ، ٢٠ ، إصحاح ١٤ : ٣) .

أما الجرائم التى ارتكبها اليهود ضد الشعب الفلسطينى فى القرن العشرين ، فهى مستمدة أيضًا من كتابهم المقدس . وأنّ ((رب اليهود لايكتفى بالقرابين من الحيوانات ، ويُلزم اليهود بالقرابين البشرية لإرضائه. ومن هنا كانت العادة اليهودية بذبح الأطفال واستنزاف دمائهم لعجين فطائر عيد الفصح)) (ص١٥٠) وضرب المؤلف مثالا بذلك بما ورد فى سفرالخروج ١٢ : ٢٩ إذْ جاء فيه ((فحدث فى نصف الليل أنّ الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر. من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكرالأسيرالذى فى السجن وكل بكر بهيمة)) وقال المؤلف : إنّ شهوة القتل (حتى قتل الأطفال) مستمدة من التوراة فكتب ((حينما انتصر جند موسى على المديانيين وجاءوا بالسبايا والغنائم قال لهم موسى « فالآن أقتلوا كل ذكر من الأطفال» (عدد ٣١ : ١٧) ويخلص المؤلف من قراءة العهد القديم إلى أنّ إله العبريين هو((الذى كان يوحى إلى موسى بخطط الحرب والخديعة ، فيأمره بالتجسس وجمع المعلومات قبل الهجوم على أرض كنعان . وهذا ما ورد فى

سفرالعدد ١٣ : ١ حيث نصّ على ((ثم كلم الرب موسى قائلا إرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا مُعطيها لبنى إسرائيل)) والتحريض على قتل الأطفال وسبى النساء وحرق المدن والسرقة والوعد بإحتلال أراضى الغير، مثل أراضى المصريين وأراضى الكنعانيين ، كل ذلك ورد بالتفصيل فى معظم أسفارالعهد القديم . وكتب د. رشاد ((إنّ التوراة تطبع العقيدة الإسرائيلية برباط وثيق بين (حرب إسرائيل) و (رب إسرائيل) حيث يُصبح هذا الرب هو(رب الجنود) الذى يُمهّد لبنى إسرائيل السبيل لتحقيق مآربهم فى الغزو والإحتلال وطرد الشعوب)) (١٦٨ ، ١٦٩) .

هذا الموقف العدائى من الشعوب المتحضرة المستقرة ، جعل كثيرين من المفكرين يُوجّهون نقدهم إلى التراث العبرى ، فيرى المؤرخ توينبى أنّ ((اليهودية هى أقبح أمثلة عبادة الذات)) وبعد مذبحة ديرياسين وجّه نقدًا شديدًا ضد بنى إسرائيل فقال : ((إنّ الدرس الذى استخلصه اليهود من مواجهتهم مع النازى قادهم ، لا إلى تجنب الجرائم التى ارتكبها النازيون ضد اليهود ، بل إلى تقليدها)) (ص٢١ ، ١٨٨) أما العالم الكبير فرويد فوصف (رغم أنه موسوى الديانة) ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار بأنه خرافة مطبقة. وأنّ اليهود أخذوا عن المصريين عادتين ، كانوا يتميّزون بهما ، ونسبها اليهود لأنفسهم . وهما عادة الختان وتحريم تناول لحم الخنزير)) (ص٣٧) أما فولتير - أحد روّاد التنوير الكبار - ((كان يعتبر اليهود من آثار السامية البدائية)) وقال عنهم : ((إنك لتجد فيهم مجرد شعب جاهل ومتوحش ، زاول لمدة طويلة أخس أنواع البخل وأبغض أنواع الخرافات . ويحمل كراهية لاتعادلها كراهية لكافة الشعوب التى تسامحتْ معه وكانت سببًا فى ثرائه)) (ص٤٠) .

فى فصل شيّق عرض المؤلف حركة التنوير اليهودية (الهسكالاه) التى استهدف مؤسسوها القضاء على نظام الجيتو، أى القضاء على العزلة التى فرضها اليهود على أنفسهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها . وأنّ الحل هو الاندماج داخل المجتمع ،

بحيث يكون التركيز على صفة المواطنة ، وليس على أساس الانتماء الديني . وبالفعل حققتْ هذه الحركة نجاحًا ملحوظًا فى البداية لدرجة أنْ ((تفجّرتْ فى كل ناحية هتافات مثل « لنخرج من الجيتو» ، «لنقترب من الشعوب» ، « لنتعلم لغاتهم» وكان روّاد الحركة يرون أنّ النجاح الحقيقى لن يتحقق إلاّ ((اذا تمكن اليهود من اكتساب مقومات الحضارة الغربية العلمانية)) ولذلك وجّهوا سهام نقدهم إلى التراث الدينى اليهودى المغرق فى الغيبية اللاتاريخية فهاجموا فكرة (المسيح المخلص) وأسطورة العودة . وهاجموا التلمود . وحذفوا كل الصلوات التى تدعو للعودة إلى صهيون أو إحياء مملكة إسرائيل . ووصل كثيرون من دعاة الاستنارة اليهودية ، ليس إلى حد إنكارالقومية اليهودية فحسب ، بل إلى حد إنكارالدين اليهودى ذاته)) (ص٤٢ ، ٤٣) .

وبكل أسف فإنّ حركة التنويراليهودية التى حققتْ نجاحًا فى غرب أوروبا ، فإنها جوبهتْ بمقاومة شديدة فى شرق أوروبا ، وانتهت الحركة بالفشل ، وبالتالى فشل الحل الاندماجى ، بمعنى أنْ يُصبح اليهودى الهولندى والإنجليزى والأمريكى إلخ مجرد مواطن هولندى أو إنجليزى أو أمريكى ، يهودى الديانة ، مثله مثل المواطن مسيحى الديانة ، ويكون الولاء للوطن قبل الولاء للدين ، أى يندمج فى الوطن الذى يعيش فيه ، وتكون له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات . وقد امتلأ أدب حركة التنوير اليهودية بالتعبيرات التى تعاملتْ مع الدين اليهودى بصرامته وقيوده المتزمتة باعتباره حائلا دون سعادة الإنسان . وكتب الأديب يهودا ليف جوردون ((كنْ يهوديًا فى بيتك وإنسانًا خارج بيتك)) ورغم كل هذه الجهود فشلتْ حركة التنويراليهودية ، بسبب يهود شرق أوروبا ، بالإضافة إلى عوامل أخرى مثل ((ازدياد موجة معاداة السامية ، وحادثة اغتيال القيصر الكسندر الثانى فى مارس ١٨٨١ وإتهام أحد اليهود بقتله. ونشوب موجة من الاضطهاد ضد اليهود فى روسيا (من ص ٣٩ – ٤٩) ثم جاءتْ الحركة الصهيونية التى وظفتْ

الدين من أجل العودة إلى أرض الميعاد وقاومتْ فكرة الاندماج ، وروّجتْ وموّلتْ تهجير اليهود من أوطانهم ليحتلوا أرض الشعب الفلسطيني .

رصد المؤلف هجرات اليهود إلى فلسطين ، فذكر أنّ الهجرة الأولى بدأت واستمرت من عام ١٨٨٢ - ١٩٠٣ والهجرة الثانية من ١٩٠٤ - ١٩١٤ والثالثة من ١٩١٩ - ١٩٢٤ والرابعة من ٢٤ - ١٩٣١ والخامسة من ٣٢ - ١٩٣٨ (ص ٨٦ ، ٨٧) وأنّ الكاتب الصهيوني (آحاد هاعام) كتب في عام ١٨٩١ ((نحن في الخارج نظن أنّ فلسطين صحراء برية. غير مزروعة. وأنّ أي شخص يستطيع أنْ يشترى من الأرض حسب رغبته)) وبعد عشرين عامًا قال ((إنّ كثيرين من أهالى فلسطين الذين أخذ وعيهم القومي في النمو، ينظرون شزرًا إلى بيع الأراضي (للغرباء) ويعملون جهدهم لوقف هذا الإثم)) (ص١٧٩) وذكر المؤلف أنّ الصهيونين ((حاولوا مساندة الحكم البريطاني لمدة تكفي لزيادة عددهم ولشراء المزيد من الأرض)) (ص٢٢٧) وأنّ ((أول إحتجاج فلسطيني رسمي ضد التدخل الصهيوني كان في ٢٤/ ٦/ ١٨٩١ عندما بعث بعض وجهاء القدس عريضة إلى القسطنطينية يُطالبون فيها بمنع اليهود من دخول فلسطين وشراء الأراضي فيها ، فما كان من الحكومة العثمانية إلاّ أنْ أصدرتْ قوانين تمنع الهجرة اليهودية. ولكن إحتجاجات الدول الأوروبية حدّتْ من تلك القوانين)) (ص ٢٥٨) .

وعن الموازيك الذي يحكم الشخصية اليهودية ، وبالتالى الخريطة السكانية للمجتمع الإسرائيلي ، تحدّث المؤلف عن تقسيمات اليهود داخل إسرائيل : القسم الأول هم مجموعة اليهود (الإشكنازيم) التي هاجرتْ من أوروبا إلى فلسطين ، وهذه المجموعة ((تحتل قمة الهرم الاقتصادي الاجتماعي . وتُسيطر على كل مراكز القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية . وترى ضرورة أنْ يرتبط تاريخ إسرائيل بتاريخ وثقافة وتراث اليهود في أوروبا ، بحيث يسود الطابع الحضاري الغربي دولة إسرائيل ، باعتبار أنّ المؤسسين ينتمون إلى هذا الطابع الحضاري

ويحرصون على استمراره ، رغم موقع إسرائيل فى الشرق الأوسط)) .

المجموعة الثانية هم اليهود (السفارديم) الشرقيين من عرب ومغاربة إلخ وهم لم يُعانوا الاضطهاد كما حدث ليهود أوروبا ، وهاجروا إلى فلسطين تحت تأثيرالحركة الصهيونية ، وأملا فى مستوى معيشى أفضل من الذى كانوا يعيشون فيه فى بلادهم . والملفت للإنتباه كما ذكرالمؤلف أنّ هؤلاء اليهود السفارديم (ومعظمهم عرب) تحوّلوا- نظرًا لثقلهم النسبى فى العملية الانتخابية منذ عام ١٩٧٧ - إلى التصويت لصالح اليمين المتطرف الذى يُمثله حزب (ليكود) وأتاحوا الفرصة لليمين الإسرائيلى أنْ يتولى الحكم لأول مرة فى تاريخ إسرائيل ، ولفترتيْن متتاليتيْن (انتخابات ٧٧ ، ١٩٨١) وأعطوا الليكود ٧٢٪ من أصواتهم فى يوليو ١٩٨٤ . وعن شخصية اليهود العرب ذكرالمؤلف ((لقد ترتّب على الظروف التى غادر بها اليهود البلاد العربية ، فى إطار من التضخيم الإعلامى الصهيونى للكراهية العربية لهؤلاء اليهود من ناحية ، ولعدم وجود خطة استراتيجية عربية واضحة بشأن مستقبل اليهود فى المنطقة من ناحية أخرى ، ترتّب على هذه الظروف أنْ تولّد الإحساس لدى اليهود السفارديم بأنّ الاختيارالمفروض عليهم هو بين الاندماج فى المجتمع الإسرائيلى وقبول قيمه ومفاهيمه كما هى ، أو الذبح والطرد على يد العرب فى حالة انتصارهم على إسرائيل ، ولذلك فهم أكثر استعدادًا لقبول النظرة الفاشية التى تجعل من الفلسطينيين والعرب عمومًا كبش فداء . وقد أصبح من الشائع أنّ السلوك السفاردى يُجسّد الحقد العميق للعرب . وأنهم أكثرمن كافة الإسرائيليين تزمتًا وحبًا للحرب وتجسيدًا للروح العدوانية الإسرائيلية وأشرسهم مساندة لمبدأ ضم الأراضى العربية المحتلة. وردّدوا أكثرمن مرة بأنهم أتوا بمناحم بيجين للسلطة فى مايو ١٩٧٧ لأنه هو وجيله يُجسّدون العداء للعرب بأشد ما يكون التصلب والعناد (من ص ٨٩-١٠١) .

ولأنّ المؤلف عالم كبير ومتمكن من مادته عن الشخصية اليهودية ، لذلك ربط

ما سبق عن شخصية اليهود السفارديم بموقف اليهود الاشكناز منهم ، فى تطوردراماتيكى عن هذا المجتمع الموازيكى ، فكتب إنّ الاشكناز ينظرون إلى اليهود العرب ((باعتبارهم إسفين الحضارة العربية المتخلفة المزروع داخل المجتمع الإسرائيلى . وأنهم سيكونون ، فى حالة حدوث سلام مع العرب ، أقدرالفئات الإسرائيلية قدرة على فهم العرب والتعايش معهم . وأنّ هذا الأمر يُهدد أساس الوجود الإسرائيلى كدولة تُعتبر امتدادًا طبيعيًا للحضارة الغربية)) .

المجموعة الثالثة هى اليهود (الصباريم) أى الذين وُلدوا على أرض فلسطين ، ولايعرفون لهم وطنًا آخر سوى إسرائيل بعد قيامها . وأنّ ارتباطهم بإسرائيل ليس نتيجة اعتقاد أيديولوجى أو إيمان بالصهيونية ، ولكن ببساطة لأنهم وُلدوا على هذه الأرض ، وليس لديهم عقدة اضطهاد مثل آبائهم ، وأنهم يضعون إسرائيل قبل يهوديتهم ، حيث يعتقدون أنهم وُجدوا ، ليس على أرض يهودية وإنما على أرض إسرائيلية. وهذه الشخصية العبرية الجديدة (الصبار) تحتقر يهود الجيتو. ويرفضون شخصية (رجل الجيتو) ويشعرون أنهم أقرب إلى (الشعب السليم) فى جسده وروحه عن ذلك اليهودى المعقد فى الجيتو، كوصمة عار ليهود أوروبا ((الذين ساروا كالشاة إلى المذبحة)) وفى أدب الأطفال نجده يمتلئ بأوصاف كل من (الصبار) و (اليهودى الجيتوى) حيث صورة الصبار(الراقى) والجيتوى (المنحط) وأنّ الصبار يعتبر نفسه (ابن البلد) وأنه عبرى وليس يهوديًا . والشخصية الصبارية تضيق ذرعًا بتدخل الحاخامات فى حياة الناس الخاصة ، لذلك يأكلون لحم الخنزير علانية (من ص ٩١- ١٢١).

وعن الفرق بين اليهود الشرقيين والغربيين ذكرالمؤلف ((كانت هناك تناقضات هامة بين الاثنين . فاليهود الشرقيون كانت حياتهم الجديدة فى إسرائيل تُمثل إنجازًا لتراثهم اليهودى ، لكنها بالنسبة لمعظم اليهود الغربيين تُمثل نبذًا لماضيهم اليهودى)) (ص ١٩٨) ولعلّ ذلك ما جعل المهتمين بدراسة الشخصية

اليهودية داخل إسرائيل ، أنْ يُفرّقوا بين اليهودى المتمسك بالدين واليهودى المتمسك بإسرائيل ، وهو ما عبّرعنه المؤلف قائلا ((اليهود يريدون العيش وفقًا للتوراة. أما الإسرائيليون فهم يؤمنون بالتراث اليهودى اسمًا ، ولكنهم فى داخل أعماقهم يريدون أنْ يُصبحوا شعبًا جديدًا مختلفًا ، أنْ يكونوا تابعين للحضارة الغربية ، وتُصبح (أرض الميعاد) مجرد (صدفة تاريخية) وعن اليهودى الغربى المؤمن بإسرائيل الرافض للديانة العبرية كتب يسرائيل هارل ((لقد أصبحت مشكلة الإسرائيليين أنهم لايؤمنون بأية حقيقة مطلقة.. والإسرائيلى المتأثربالحضارة الغربية، يؤمن بنسبية الحقيقة وأنّ لكل عملة وجهين)) .

فى داخل هذا الموازيك الذى يُشكل الشخصية اليهودية فى إسرائيل ، نشأتْ جماعة (الكنعانيين) الذين يرون أنّ الجنسية الإسرائيلية ليست مرتبطة بالتصورالصهيونى ، ويُطابقون بين الجنسية والمواطنة. ويرون ضرورة تحريرالعبريين من يهوديتهم ، والعرب من إسلامهم . وإقامة دولة علمانية واحدة فى كافة منطقة الهلال الخصيب دون فرق بين اليهود والعرب ، بالعودة إلى الأصل الثقافى العبرى القديم ، استنادًا إلى أنّ العرب سكان البلاد هم أحفاد اليهود القدماء . وأعضاء هذه الجماعة لايشعرون أنهم يهود . وأنّ الجيل السابق عليهم جعل الدين مكروهًا لديهم. وأنّ التاريخ اليهودى عبر ٢٥٠٠ سنة غير مُلزم لهم . ويرون أنّ اليهود ليسوا شعبًا متجانسًا ، إذْ فيهم الآسيوى والإفريقى وما بينهما من اختلاف عن اليهودى الأوروبى . واذا كانوا يرفضون الدين العبرى ، فإنهم يرفضون أيضًا أنْ يكونوا صهاينة (ص ٩٣ ، ١١٥ ، ١١٦) .

فى فصل ممتع تحدّث المؤلف عن افتقاد الشخصية اليهودية للجذور، لذلك حدث ولع لدى معظم الإسرائيليين بالآثار. والسبب كما ذكرالمؤلف ((علماء الآثار فى إسرائيل محترفون وهواة لايحفرون من أجل الخبرة الفنية والاكتشافات ، بل ليُقرّوا من جديد جذورهم التى يرونها فى المخلفات الإسرائيلية العتيقة. ومن هنا

فإنّ ضمائرهم فى أعماق الماضى تتأثر بمصالح الحاضر الإسرائيلى ومشاعره. ولاغرابة فى أنْ يكون أشهر الهواة هو موشيه ديان . وكتب (روى لجئولا) : ((إننى أبحث عن أرض إسرائيل القديمة)) وقال (يجال يادين) رئيس الأركان الأسبق ((لقد أصبح الإيمان بالتاريخ لدى الشباب بديلا عن الدين . إنّ علم الآثار الوطنى يُكرّس جهوده لتحقيق الماضى العبرى للبلاد)) وكتب (جون لافين) إنّ التنقيب بالنسبة للإسرائيليين هو نوع من تأكيد الذات ، لأنه يُمثل ماضيهم . وأنّ علم الآثار القديمة يُقدّم لهم الدليل المادى لوجودهم فى إسرائيل كشعب . وذكرد. رشاد معلومة مهمة وهى أنّ الإهتمام بعلم الآثار بدأ عام ١٩٢٠ (أى قبل قرار التقسيم فى عام ٤٧ وإحتلال فلسطين فى عام ١٩٤٨) وفى عام ١٩٤٧ كان علم الآثار قد نما تمامًا ، إذْ بفضل راعى شاب كان يبحث عن معزة شاردة ، تم اكتشاف برديات بحر الميت . وأنّ هذه البرديات تم شراؤها من تجار عرب . وقد أعلن رئيس الوزراء آنذاك نبأ شرائها فى بيان رسمى فى الكنيست وهى تشتمل على كتابات خطية من القرن الأول لسفر أشعيا ، وهو أقدم من أية نسخة خطية عبرية للعهد القديم . وفى الفترة من ٦٣- ١٩٦٥ قام البروفيسور يجال يادين بحفائر شاملة فى (متسادا) وقام بمعاونته آلاف المتطوعين من إسرائيل ومن خارجها . وكان هؤلاء يحسون أنهم يقومون بعمل مقدس . وكتب يادين ((إننا لم ننجح فى تنفيذ هذه المهمة الصعبة إلاّ عندما تقدّمتْ جموع المتطوعين من البلاد)) وقامت إسرائيل بترميم المكان وإعادة بناء (المتسادا) جزئيًا . وأصبح من السهل الوصول إلى المكان بالقطار المعلق (التلفريك) وتزوره جموع السائحين كل سنة. وتُقام حفلات دائمة تُمثل الترابط بين السياسة وعلم الآثار فى التاريخ الإسرائيلى الحديث . ويصل الأمر لدرجة أنْ يستعير يادين عبارة نابليون أمام الأهرام فى مصر عندما خاطب جنوده قائلا ((إنّ أربعين قرنًا من التاريخ تتطلع إليكم)) يستعير يادين هذه العبارة وهو يتمنى لو أنّ نابليون قالها فى إسرائيل (من ص ١٢٦- ١٣٢ ، ١٦٠) .

ولكن هذا الولع بالآثار الذى وحّد الإسرائيليين ، لم يمنع التمزق داخل الشخصية اليهودية ، خاصة وأنّ الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لم تتمكن من تحقيق السلام ، لامع الفلسطينيين ولامع الدول المجاورة لها . ولذلك يشعر المواطن الإسرائيلى أنه فى حالة حرب دائمة ، خاصة وأنّ نظام التجنيد تسبّب فى (عسكرة المجتمع الإسرائيلى) (ص٢٠٥ وما بعدها) بل إنّ التوراة بصفتها المرجعية الدينية للإحتلال وتبرير شريعة العنف ، تُدرّس فى المدارس بوصفها مادة تاريخ قومى (ص١٩٩) كما أنّ الكثيرين تأثروا بمقولات الزعماء أمثال بن جوريون الذى قال ((لايهم ما تقوله الشعوب الأخرى ، بل المهم هوما يفعله اليهود)) (ص١٤٤) وقال أيضًا ((بالدم والنار سقطتْ يهودا ، وبالدم والنار ستقوم يهودا)) (ص٢٠٦) أما زائيف جابوتنسكى فقال ((السيف والتوراة قد نزلا علينا من السماء)) (ص١٨٢) .

وقد عبّرتْ عالمة النفس الإسرائيلية عاميا ليبليخ عن هذا الواقع بقولها ((إنّ الحرب فى إسرائيل جزء من الماضى ، ومن الحاضر ومن المستقبل . ويسأل الإسرائيلى نفسه : هل يُسعدنى الحظ فى الحرب القادمة وأنجو كما نجوتُ فى الحرب السابقة ؟ أما الأديب الإسرائيلى ساميخ يزهار فقال ((كان الإحساس التراجيدى لأبناء هذه الأجيال ، هو أنّ الحروب قد فُرضتْ عليهم دون أنْ يُعطى لهم خيار

أو سيُعطى لهم)) وعن هذا الكابوس الوجودى الذى حوّل المجتمع الإسرائيلى إلى ثكنة عسكرية ، كتب الشاعر الإسرائيلى يعقوب باسار((الحرب المقبلة.. نُنشئها.. نُربيها.. ما بين حجرات النوم.. وحجرات الأولاد)) أما الأغنية التى شاعتْ بعد حرب يونيو٦٧ فهى التى كتبها الشاعر الإسرائيلى حانوخ لفين وتقول كلماتها ((حين نتنزه نكون ثلاثة : أنا وأنت والحرب القادمة.. وحين ننام نكون ثلاثة : أنا وأنت والحرب القامة)) (من ص ٢٤٢- ٢٤٦) .

وسط هذا المناخ المؤسس على شريعة القتال والطمع فى أراضى الشعوب

المستقرة منذ آلاف السنين ، تبرز بضعة أصوات إسرائيلية راغبة فى تحقيق سلام يضمن الاستقرار. وأنّ هذا الاستقرار لن يتم إلاّبعد الاعتراف بالشعب الفلسطينى وتمكينه من إقامة دولته المستقلة بعيدًا عن أى تحرش إسرائيلى . من بين هذه الأصوات من يمتلك ضميرًا حيًا فيكتب مؤكدًا أنّ ((الوطن الإسرائيلى لم يقم لا بالحق ولا بالتاريخ ولا بالهرب من الاضطهاد ، بل بالعنف وحده . نعم بالعنف والدم)) وكتب آخرعن جرائم الجيش الإسرائيلى ضد المدنيين أثناء الاعتداء على لبنان عام ٨٢ فقال : إنّ التركيب النفسى للشخصية اليهودية غيرعادى . وما حدث فى لبنان أبعد ما يكون عن البطولة التى يحتاج إليها الشخص اليهودى . هل البطولة العسكرية هى صورة هذا الرجل الذى يبحث فى الأنقاض عن حفيده ؟ أو هذا الرجل الذى يفر هاربًا من الجحيم حاملا بين ذراعيه ابنته ذات العشر سنوات ؟ حرام علينا أنْ نعقد المقارنات بين ما يحدث اليوم لهؤلاء العرب وبين ما حدث لنا فى الماضى ، لأننا لو عقدنا هذه المقارنات لإتضح أنّ الجرائم التى أُرتكبتْ فى حقنا بالأمس هى نفس الجرائم التى نرتكبها اليوم)) (ص١٥٤) .

وبعد حرب يونيو٦٧ صدر كتاب (أحاديث المقاتلين) ورد فيه اعترافات الجنود الإسرائيليين وانطباعاتهم عن الحرب ، فقال أحدهم ((إذا كنتُ فى هذه الحرب قد تذكرتُ نكبة اليهود فى أوروبا ، فلقد حدث هذا الأمر فى لحظة معينة حينما كنتُ فى طريق القدس . كان اللاجئون يتدفقون أمامنا فى إتجاه الأردن . لقد شعرتُ على الفور بالتعاطف معهم ، حينما رأيتُ الأطفال على أذرع آبائهم . رأيتُ فيهم نفسى محمولا بين ذراعىْ أبى)) وذكر جندى آخر أنه حينما دخل معسكراللاجئين كى يقوم بعملية تفتيش شعر بأنه ((رجل جستابو)) وعلّق د. رشاد قائلا ((وهذا يُذكرنا بقول الفيلسوف الألمانى هيجل «أنْ تقتل فإنما تقتل نفسك» ففعل القتل ، بقدرما هو حماية للذات من خطر، لامفر للقاتل من أنْ يرى نفسه مقتولا فى ذات القتيل)) وقال كاتب يهودى : ((إنّ القومية اليهودية فى

فلسطين مبنية على أنانية عسكرية وبعيدة كل البعد عن الإنسانية)) (من ص ١٥٥ - ١٥٧).

وإذا كان تاريخ قيام الدولة الإسرائيلية هو عام ١٩٤٨ فإنّ اليهود استعدوا لذلك اليوم بزمن طويل ، حيث يتبين من مصادر المؤلف الاعتماد على عدد من صحيفة ها آرتس وتعنى بالعبرية (الأرض) ويرجع تاريخ تأسيسها إلى عام ١٩١٩ وعلى الإهتمام بعلم الآثار منذ عام ١٩٢٠ بل إنّ اليهود وصل بهم الأمر لدرجة تأسيس (اتحاد للعمال العبريين) قبل إنشاء دولة إسرائيل بثمانية وعشرين عامًا ، حيث تأسس إتحاد العمال (الهستدروت) فى ديسمبر ١٩٢٠.

رغم كل هذه الاستعدادات ، ورغم المستوى المعيشى المرتفع ، ورغم جهود العلمانيين ودعاة السلام الإسرائيليين للاعتراف بحق الشعب الفلسطينى حتى يتحقق الاستقرار لكل سكان المنطقة ، رغم كل ذلك فإنّ الإسرائيليين ((يعيشون تناقضًا حادًا بين فرضيات العقيدة الصهيونية وبين إفرازات المجتمع الإسرائيلى فى صراعه مع الواقع العربى الرافض لوجوده)) (ص٢٣٦) وأشار المؤلف إلى عامل آخر يزيد من حدة التناقضات ، وهو أنّ الإسرائيليين يُشكلون مجتمعًا غير متجانس، حيث أتوا من بلاد عديدة ، ويتحدّثون ٧٠ لغة ، ولديهم خلفيات حضارية مختلفة (ص٢٤٧) ولكن هذا التعدد اللغوى جعل الإسرائيليين يتخلون عن التحية العبرية التى كانت سائدة بينهم (شالوم عليخم) وأصبحوا يُفضلون استخدام تحيات حضارية مثل (بوكرطوف) أى صباح الخير، (عيرف طوف) أى مساء الخير وغيرها من التحيات المتعددة (ص١١٧) فهل التخلى عن التحية الواحدة الأحادية الشمولية العبرية (شالوم عليخم) ستجعلهم متحضرين وبالتالى ينبذون العنف ؟ أعتقد أنّ رفض الأحادية (حتى فى صيغة التحية) يعنى الانحياز للتعددية ، ولعلّ هذا أنْ يكون أحد المؤشرات التى تؤكد على طبيعة التناقضات داخل المجتمع الإسرائيلى .

واذا كان اليهود قد تجرّعوا الذل على يد النازى ، فإنهم أعادوا انتاج الذل ومارسوه على غيرهم ، وهو الأمر الذى أكده المؤلف قائلا ((إذا جاز لنا القول بأنّ أولئك الذين «كانوا عبيدًا فى أرض مصر» وفق رواية التوراة ، قد تحوّلوا إلى غزاة محتلين لأرض كنعان ، بعد فترة التيه أو الاختيار الطبيعى ، فإنّ أولئك الذين «كانوا عبيدًا فى الجيتو» فى العصر الحديث ، قد تحوّلوا هم الآخرون إلى غزاة محتلين لأرض فلسطين ، بعد أنْ تعرّضوا لسلسلة من الاضطهاد بلغتْ ذروتها فى اللاسامية النازية، التى تركتْ أثرًا واضحًا على السمات السلوكية للنمط الصهيونى ، ثم على الشخصية اليهودية الإسرائيلية)) وأنّ اليهود (بعد تجربتهم مع النازى) نراهم ((عندما يجدون الأشخاص الآخرين أضعف منهم ، يُمارسون معهم نفس الاستخفاف ونفس القسوة اللذين احتملوهما فيما مضى . وهذه الظاهرة معروفة فى علم النفس بـ ((التوحد فى المعتدى)) (ص١٤١) .

obeikan.com

الفصل الخامس

الروائي الأيرلندي جيمس جويس واليهود

اهتمتْ الحركة الصهيونية بالدعاية منذ نشأتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، منذ أنْ فكرتْ فى احتلال أوغندا وفشلتْ ، وفكرتْ فى احتلال سيناء وفشلتْ ، حتى تمكنتْ من احتلال فلسطين .

وقد تأثر عدد من الكتاب الأوروبيين بهذه الدعاية ، فكتبوا عن الحركة الصهيونية دون أنْ يكتبوا كلمة مضادة عن الشعب الذى سُلبتْ أرضه . وبالرغم من ذلك فإنّ تاريخ الفكر والأدب الأوروبى لم يعدم كتابًا لهم وجهة نظر مغايرة تمامًا عن الأولى ، من بين هؤلاء الكتاب الروائى الأيرلندى الكبير (جيمس جويس) .

فى روايته المهمة (عوليس) نتعرّف على مستر(ديزى) الذى يرجو مستر(ديدالوس) أنْ ينشر له بيانًا فى الصحيفة التى يعمل بها . لماذا هذا البيان ؟ لأنّ مستر(ديزى) وغيره من التجار يستشعرون الخطر من ((عصابة ليفربول التى خرّبتْ مشروع بناء جولواى)) ليس ذلك فقط ، بل إنّ هذه العصابة- كما ذكر مستر(ديزى) تُهدد ((تجارتنا للماشية ومصير كل

صناعتنا القديمة)) ولكى يُؤجج فيه غيرته الوطنية ، فإنه أضاف ((إنهم سيضعون حظرًا على الماشية الأيرلندية)) ثم يستعطفه قائلا ((والآن أحاول اللجوء للدعاية .. إنى محاصر من كل جانب بالمشاكل .. بالمكائد .. بالمناورات الخفية)) .

فمن هى عصابة ليفربول ؟ ومن هم الذين يُهدّدون تجارة الأيرلنديين فى لندن ، بل ويُهدّدون إنجلترا نفسها ؟

بعد حالة الذعر يبدأ مستر(ديزى) فى الافصاح ((رفع سبابته مُلوّحًا بها بطريقة عجائزية قبل أنْ يتكلم صوته : « خذ بالك من كلامى يا مستر ديدالوس .. إنجلترا فى قبضة اليهود .. فى كل مراكز النفوذ : مراكزها المالية .. وصحافتها . وهم إمارات الاضمحلال لأية أمة ، أينما يتجمّعون يستنفدون طاقة الأمة الحيوية . لقد شاهدتُ ذلك يحدث فى هذه السنوات . وكتأكدى من وقوفنا هنا أقول لك : إنّ التجار اليهود بدؤوا عملهم التخريبى . إنّ إنجلترا العجوز تحتضر)) .

علّق بطل الرواية قائلا ((التاجر هو الذى يشترى رخيصًا ويبيع غاليًا .. يهودى كان أو ذمى)) فردّ مستر (ديزى) بحزم ((لقد كفروا بالنور.. ويمكنك أنْ ترى الظلام فى عيونهم .. ولهذا فهم مُشرّدون فى الأرض حتى يومنا هذا)) .

وعلى درجات بورصة باريس ، وصفهم جيمس جويس قائلا ((رجال ببشرة ذهبية ، يحسبون الأسعار على أصابعهم المرصعة بالجواهر. ثرثرة الأوز. احتشدوا حول المعبد فى جلبة فظة ، ورؤوسهم تزخر بالمؤامرات ، يُدركون الضغائن تتكتل حولهم ، يُدركون أنّ حماستهم عبث ، صبر عقيم للكنز والتكديس ، سيُبعثره الزمان كله بكل تأكيد ، كنز مكتنز على قارعة الطريق : يسلب ويُبعثر. عرفتْ عيونهم سنوات التشرد ، وبصبر تحمّلوا مخازى جنسهم)) .

وفى نهاية اللقاء ، وبعد أنْ همّ مستر(ديزى) بالانصراف توقف ليقول للبطل ((أردتُ فقط أنْ أقول لك هذا : إنّ أيرلندا – كما يقولون – لها الشرف أنْ تكون

الفصل السادس

حنه و ميخائيل: صورة للصراع داخل المجتمع

«هذه الأرض وطن لشعبين . من الواضح
أنه ليس لديهما وطن آخر ولاخيار آخر»
(عاموس عوز)

إذا كان الأدب الرفيع هو الذى يُعيد صياغة الواقع من خلال رؤى جمالية ، تُخرج الكامن من أعماق شخصيات هذا الواقع ، فتعكس أبعادها النفسية والعقلية ، اذا كان هذا هو أبسط تعريف للأدب رفيع المستوى ، عميق المعنى ، فإنّ قراءة رواية (حنه وميخائيل) للكاتب الإسرائيلى (عاموس عوز) ترجمة رفعت فوده ، الصادرة عن الدارالعربية للطباعة والنشر والتوزيع عام ١٩٩٤ ، ينطبق عليها هذا التعريف ، خاصة أنه من خلال شخصيات الرواية قدّم المبدع للقارئ صورة أدبية لكل تناقضات المجتمع الإسرائيلى ، وأنّ هذه التناقضات هى التجسيد الحى للصراع داخل هذا المجتمع ، وذلك على عدة محاور:

المحورالأول : هو أنّ المجتمع الإسرائيلي مُتعدد الأعراق ، أى مُتعدد الأجناس ، وبالتالى فهو مُتعدد الثقافات واللغات ، لدرجة أنّ أكثر من شخصية تتحدث العبرية بصعوبة وركاكة (ص ٢٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٧٦ ، ١٩١) ورغم أنّ هذا التعدد العرقى كان سببًا لإفتقاد التجانس المجتمعى بين أفراد شعب يعيش على أرض وطن واحد ، وتسبّب فى نزاعات تصل أحيانًا إلى حد الحروب الأهلية إلاّ أنّ هذا الافتقاد للتجانس فى المجتمع الإسرائيلى لم يُخلخل انتماء الإسرائيليين للدولة التى يعيشون على أرضها وللنظام الذى يحكمهم . فما هوالسبب ؟ السبب أنّ الإسرائيليين (غربيين وشرقيين ، علمانيين وأصوليين) يُؤمنون أنّ دولة إسرئيل الوليدة هى حقيقة لايجب التشكيك فيها ، وبالتالى فإنّ أى تشكيك فى إسرائيل كدولة ، وأى تهديد لهذه الدولة ، فإنّ (كل) الإسرائيليين يقفون ضد هذا التهديد . أى أنّ مفهوم (الوطن) هو الذى (وحّد) كل الإسرائيليين ، ويكون الاختلاف داخل هذا المجتمع حول الحق الفلسطينى . فالأصوليون ينكرون أى حق للفلسطينيين ويُشجّعون على استخدام العنف ضدهم ، وكان الكاتب موفقًا وهو يجعل عين البطلة (حنه) تقرأ على أحد الجدران فى مدينة القدس ((كتابة حمراء غير واضحة من أيام منظمات العمل السرى اليهودى هذه العبارة « بالدم والنار سقطتْ يهودا . وبالدم والنار ستنهض يهودا»)) وكان تعليق (حنه) هو : ((لم أحب الفكرة التى وراء هذا الشعار. بل أحب ترتيبها الداخلى . نوع من التوازن الخطرلا أستطيع أنْ أشرحه)) (ص٨٤ ، ٩٠) وفى المقابل نجد ميخائيل يقول لابنه عن حرب عام ١٩٤٨ ((هنا كان العرب، ونحن هنا)) (ص١٧١) ووالد ميخائيل يحكى لابنه عن ((عرب أشرار وعرب أخيار)) (ص١٠٧) و(حنه) تتكلم فى مونولوج داخلى عن ((فلسطين البعيدة)) (ص١٨٨) أى أنّ الرواية تعكس صورة التيارين الرئيسيين فى المجتمع الإسرائيلى : تيارالأصوليين الذين يرفضون أى حق للفلسطينيين فى إقامة دولتهم ، تأسيسًا على مرجعيتهم الدينية ، والتيار العلمانى (وكذلك فصائل اليسار الإسرائيلى) الذين

البلد الوحيد الذى لم يضطهد اليهود . ألا تعرف ذلك ؟)) .

وعندما سأله مستفسرًا ، قال مستر(ديزى) : ((لأنها لم تسمح لهم بدخولها أبدًا .. قال ذلك بافتخار)) وظلّ يُردّد جملته وهو يبتعد ((لأنها لم تسمح لهم بدخولها أبدًا)) .

***

كتب جيمس جويس هذه الرواية ، فى أوائل القرن العشرين ، أى قبل احتلال اليهود لفلسطين والضفة والقدس والجولان وسيناء (لعدة سنوات قبل تحريرها) وقبل غزو جنوب لبنان وضرب المفاعل الذرى العراقى ، وقبل فرض كلمتهم على المنطقة بأكثر من خمسين سنة . فإذا قارنّا ما كتبه جيمس جويس فى رواية (عوليس) بما حدث على أرض الواقع ، تكون أمامنا صورتان : الأولى لروائى أيرلندى ، لم يحتل اليهود وطنه ، ومع ذلك يصفهم بأنهم ((عصابة)) وأنهم ((إمارات الاضمحلال لأية أمة ، وأينما يتجمّعون يستنفدون طاقة الأمة الحيوية)) ليس ذلك فقط ، وإنما هم أيضًا ((بدأوا عملهم التخريبى)) .

وفى لهجة ساخرة دالة كتب ((إنّ أيرلندا لم تشملهم . ولم تسمح لهم بدخولها أبدًا)) والصورة الثانية المقابلة هى ما حدث من تطبيق عملى للمخطط الصهيونى على أرض الشعب الفلسطينى ، وتهديد باقى دول المنطقة ، فهل يكمن سبب المقارنة فى أنّ الدول الأوروبية أخرجتْ مفكرين ومبدعين انتبهوا للمخطط الصهيونى مبكرًا ، واستشعروا خطر هذا المخطط وهو جنين فى أحشاء الآباء الأول للصهيونية ، بينما الدول التى كانت مستهدفة لإحتلال أراضيها ونهب ثروات شعوبها ، لم تُخرج مفكرين ومبدعين على مستوى المفكرين والمبدعين الأوروبيين ، فيما يتعلق بالمشروع الصهيونى الذى يستهدف تحقيق الحلم التوراتى وتنفيذ مشيئة الإله العبرى لبنى إسرائيل ، باحتلال (أرض الميعاد) ؟ مجرد سؤال . وأيًا كانت الإجابة ، فإننى أعتقد

أنّ ما قاله الفيلسوف الألمانى (نيتشه) لشعبه مازال صالحًا وقابلا لترديده اليوم وكل يوم ، بل وطوال ساعات اليوم . ومن واجب كل مفكر وكل مبدع حر أنْ يقتبسه ويُوجّهه إلى شعبه ، كما فعل (نيتشه) الذى قال ((عليكم أنْ تستشعروا الخطر دائمًا حتى تتقدّموا ولاتتخلفوا)) .

obeikan.com

يُدافعون عن حق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم .

هذا الموقف الذى جسّده الكاتب فى الرواية هو تعبير صادق عن قناعاته الشخصية ، إذْ قال فى حديث صحفى : ((إنّ النزاع العربى الإسرائيلى على الأرض هو نزاع ، ليس بين حق وباطل ، وإنما بين حق وحق)) وفى كتابه (هنا وهناك فى أرض الميعاد) قال ((إنّ هذه الأرض وطن لشعبين . ومن الواضح أنه ليس لديهما وطن آخر ولا خيار آخر، لذا فإنّ عليهما أنْ يتقاسماها بشكل ما)) (ص ١٣ ، ١٥ من مقدمة المترجم) .

المحورالثانى : فى الرواية هو تقديم صورة للأصوليين داخل المجتمع الإسرائيلى فى مقابل صورة العلمانيين . فتتذكر(حنه) أنها وهى طفلة ((كنا نتجول فى شوارع بعيدة . نجوب الغابات . جوعى . نركض لاهثين نُعذب الأطفال المتدينين)) (ص٢٢) وحنه أثناء فترة الخطوبة مع ميخائيل رفضتْ أنْ تدعوه إلى غرفتها والسبب ((أنّ أصحاب المنزل متدينون)) (ص٢٩) بل إنها بعد الزواج ، وعندما كانت مريضة وزوجها فى جبهة القتال ، اطمأنتْ عندما زارها رجلان من الجيران للاطمئنان عليها . وتخشى لو أنّ رجلا واحدًا هو الذى زارها . والسبب كما تقول حنه ((لو جاء واحد منهما بمفرده ، سيفتح الباب للأقاويل الشريرة)) (ص١٥٣) ووالد ميخائيل عند زيارته للمرة الأولى لابنه بعد الزواج ، وعندما سأل على عنوان بيت ابنه ، ضلّله الأطفال المتدينون)) (ص٦٤) بل إنّ عمات ميخائيل الأربع تتعجبن فى حيرة وتتساءلن ((لماذا يعيش ميخائيل بين المتدينين ، بدلا من العيش فى مناخ ثقافى متحضر)) (ص٨١) .

هذه الصورة التى تُركزعلى أنّ الأصوليين فى المجتمع الإسرائيلى غيرمتحضرين ، يؤكد عليها الكاتب فى مواضع عديدة . إذْ بينما تسير(حنه) وميخائيل فى مدينة القدس ، ينقض على ميخائيل رجل يهودى ضخم أمسك بزر معطفه وقال فى وجهه ((ويلٌ لك يا مُعكر صفو إسرائيل . إنْ شاء الله تموت)) اندهش ميخائيل ،

فهو لايعرف الرجل الذى أضاف ((فليكن الموت من نصيب كل أعداء الرب . آمين يا رب العالمين)) وعندما تهيّأ ميخائيل ليقول للرجل : إنه ليس من أعدائه ، أنهى اليهودى الضخم الموقف قائلا ((تفو عليك وعلى كل عائلتك إلى الأبد .. آمين .. آمين)) (ص٨٥) .

واليهود المتدينون فى إسرائيل المدافعون عن الديانة العبرية يرون أنّ ((البنات كلهن من عمل الشيطان الرجيم)) (ص٥٦) والسيدة (هاداساه) صديقة حنه تنتقد الجامعة العبرية ((فهى جامعة حديثة العهد ، ومع ذلك يديرونها بأكثر الطرق أصولية)) (ص٥٧) واذا كان الأصوليون فى كل دين يُحاولون إثبات أنّ كتابهم المقدس سبق العلم فى الاكتشافات العلمية ، فإنّ والد ميخائيل يتكلم عن ((شك الخبراء فى الآية التوراتية التى تقول «أرض حجارتها من حديد . ومن جبالها يُقطع النحاس» الموجودة فى سفر التثنية (ص١٠٨) وميخائيل بعد حرب سنة ٤٨ يرفض الذهاب إلى أية مستوطنة (كيبوتز) فى النقب . وترى عمته (جينيه) أنه بذلك أحسن صنعًا ، لأنه توجّه للدراسة فى الجامعة ليخدم الشعب والدولة بعقله ومواهبه وليس بعضلاته)) (ص١٠٩) والسيد قاديشمان الأصولى المتعصب يقول ((سنقوم بإحتلال القدس . الخليل . بيت لحم ونابلس . خيرًا فعل الرب بشعبنا حين منع الحكمة عن الذين يدّعون الزعامة فينا . وجعل على قلب أعدائنا غشاوة. بيده يأخذ وبيده الأخرى يُعيد . مالم تستطع تحقيقه حكمة اليهود ، يتحقق بفضل غباء العرب . قريبًا ستندلع حرب كبيرة وستعود لنا الأماكن المقدسة)) (ص١٣٤).

على الجانب الآخر يُبرز الكاتب الوجه المضاد للأصوليين ، فرغم وجود ظاهرة التعصب الدينى داخل المجتمع الإسرائيلى ، فإنّ العلمانيين لهم حق الدفاع عن أنفسهم وإعلان معتقداتهم . وأكثر من ذلك فإنّ والد ميخائيل ((تعوّد أنْ يصف نفسه بأنه يمارس الإلحاد)) (ص١١٢) وميخائيل مثل والده . تقول حنه ((نحن لانُشعل شموع السبت ، لأنّ ميخائيل يرى فى ذلك نفاقًا من جانب الذين

لايتمسّكون بالمبادئ الدينية)) وفى نفس المشهد يقول ميخائيل ((أبى لم يعرف ماهو مدى الصدق فى المبادئ الدينية. وحين انضم أخى عمانوئيل لحركة شباب يسارية، حينذاك فقط توقفتْ العادات الدينية فى بيتنا يوم السبت. (إنّ) تمسكنا بالقواعد الدينية كان واهنًا للغاية. كان أبى رجلا مُتشككًا)) (ص١٢٠).

والتعصب الدينى يصل لدرجة أنْ يقول أحد الشخصيات الثانوية ((جميع أبناء إسرائيل متساوون أمام الرب، إلاّ أولئك الذين حلّتْ عليهم اللعنة منه سبحانه)) (ص١٢٢) أى أنّ التعصب الدينى يُكرّس لإقصاء كل مختلف والدعاء عليهم باللعنة من منظورالإيمان العبرى. واذا كان هذا الإقصاء يشمل الفلسطينيين، فهو يشمل أيضًا الإسرائيليين الرافضين للمرجعية الدينية العبرية. وهذا أحد أهم بؤرالصراع داخل المجتمع الإسرائيلى. وهو ما اهتمتْ الرواية بإبرازه. وتكتمل الصورة عندما يرفض ميخائيل أنْ يُلحق ابنه بأية مدرسة دينية، وشاركته زوجته حنه فى ذلك وقالت ((ميخائيل مُصمم تمامًا على أنْ يكون ابنه تقدميًا فى آرائه)) (ص١٦٩) وحنه تكتشف فى ابن جيرانها الفتى (يورام) موهبة كتابة الشعر، ولكنه يكتب شعرًا يستمد مادته من التوراة، فتقول ((حين تكون السيطرة التامة فى يدى، أنوى أنْ أقنع يورام بأنْ يختار حياة متهورة، بمعنى أنْ أشجّعه على أنْ يكون شاعرًا، وليس مدرسًا للتوراة)) (ص١٦٢) وتصف تلاميذ المدرسة الدينية للذكور(تحكمونى) بأنهم ((بدوا لى أكثرهمجية. أكثرعنفًا من السنين السابقة)) (ص١٧٥) والسيدة (دوباه جليك) تجد أساسًا مضحكًا للتزامن بين التراتيل الدينية وبين المطر، ولهذا انفجرتْ فى ضحك أجش)) (ص١٨٨).

المحورالثالث : هوالموقف من مصر، استنادًا إلى الإيمان العميق بحرفية ما جاء فى التراث الدينى العبرى المعادى لمصر. تدور أحداث الرواية (دون أنْ ينص الكاتب على ذلك صراحة) فى أجواء حرب عام ١٩٥٦. قال د. أورباخ ((هذه أيام مهمة. ومن الصعب جدًا فيها الابتعاد عن الأفكار التوراتية. حسنًا. بالأمس احتل الجيش

الإسرائيلي بالدبابات جبل سيناء ، تقريبًا كما توقع سفرالرؤيا . تقريبًا يوم القيامة)) (ص١٥٠) وقال السيد قاديشمان ((في هذا الوقت قواتنا تُطارد جيش فرعون الهارب . والبحر لم ينغلق لمجرمي مصر)) (ص١٥٥) وكما ذكرتُ في المحورالأول ، فإنّ الإسرائيليين (أصوليين وعلمانيين) يُوحّدهم الدفاع عن بقاء إسرائيل ، لذلك نرى ميخائيل (رغم رفضه للمرجعية الدينية) يقول ((هناك قاعدة معروفة وضعها المستشار الألماني بسمارك ، مفادها أنه حين يُهاجمك حلف من القوات المعادية ، عليك أنْ تبحث عن أقواهم وتضربه أولا . وهذا ما سيحدث هذه المرة أيضًا . سنُخيف الأردن والعراق حتى الموت ، وبعد ذلك نستدير فجأة لنضرب مصر)) وكان تعليق حنه ((أنا حملقتُ في زوجي كأنه يتحدث إليّ باللغة السانسكريتية)) (ص١٣٥) وذكرالكاتب على لسان حنه أنّ التلاميذ في المدارس يتعلمون ((قصة الخروج من مصر، والضربات العشر. أبدى معظم الأولاد فزعًا شديدًا ، ربما مُشوّشًا من قسوة المصريين ومعاناة العبريين . أما جونين (ابنها) فقد سأل أسئلة تتعلق بانشقاق البحر الأحمر. كان لديه اعتراض منمق على أقوال التوراة)) (ص١٨٤) وأثناء الحرب أذاع الجيش الإسرائيلي البيان التالي ((توغلتْ قوات جيش الدفاع الإسرائيلي هذا المساء إلى داخل صحراء سيناء واحتلت الكونتيلا ورأس النقب وسيطرتْ على مواقع بالقرب من نِخِلْ على بُعد ٦٠ كم شرق قناة السويس . صحراء سيناء هي المهد التاريخي للأمة الإسرائيلية)) (من ص١٤٦-١٤٧) .

المحورالرابع يتناول علاقة الإسرائيليين بالفلسطينيين . وهذا المحورتُجسّده (حنه) التي تدور أحداث الرواية على لسانها . حنه شخصية مركبة شديدة التعقيد . تُهاجمها الأحلام الكابوسية دائمًا . فرغم استقرار حياتها الزوجية. ورغم تقدم زوجها في أبحاثه وفي وضعه الاجتماعي ، ومع ذلك تشعر دائمًا بأنها على حافة الخطر. هل هو خطرذاتي أم خطرعام ؟ طوال صفحات الرواية يختلط الذاتي بالعام ، فهي في طفولتها كانت تلعب مع صغيرَيْن عربيَيْن (توأم) عن هذا التوأم قالت ((كنتُ

أميرة وهما حارسيّ . كنتُ قائدة مغوارة وهما الضابطان . كنتُ القبطان وهما الملاحان . جاسوسة وهما العينان)) (ص٢٢) ولكن العلاقة بينها وبين الطفلين العربيين تتعقد فتقول ((أحيانًا كنتُ أحثهما على التمرد وبعد ذلك أخضعهما بيد حديدية)) (ص٢٩) ورغم ذلك فهى تحكى لميخائيل ((وأنا فى الثانية عشرة من عمرى وقعتُ فى حبهما معًا . كانا ولدين جميلين)) وفجأة تراهما ((ذئبين رماديين . همجيين . قرصانين بحريين)) (ص٣٦) وبعد أنْ تزوّجتْ تراهما دائمًا فى أحلامها المخيفة. وأنّ أحدهما أخرج لها من عباءته سكينًا كبيرًا ذا بريق)) (ص٤٨) وفى حلم آخر يتدرّبْ التوأم العربى على استخدام القنابل اليدوية (ص٨١) ورغم ذلك فهى فى يقظتها تتمنى أنْ يكون هذا التوأم العربى ضمن المعسكر العربى الذى يسعى للسلام (ص١٥٧) .

فى الصفحات الأخيرة من الرواية ، عندما قرّرتْ الانفصال عن زوجها (رغم أنه زوج مثالى) فإنها ترى التوأم العربى فى أحلام يقظتها ومعهما صندوق متفجرات ورشاشات محشوة ومصوّبة ، وأنّ زناد الأمان مسحوب منها . رغم ذلك فإنّ الخطر فى حلم يقظتها الكابوسى مازال مُشوّشًا فتقول ((أصابع تتلمس طريقها إلى الزناد . تجمعات صراصير مُختبئة. فجأة يُدوى انفجارٌ مُروّع . وهجٌ من الضياء فى الأفق الغربى . بقايا أصداء منخفضة تُجلجل فى كهوف الجبل . على وجه الأودية ندى ثقيل . نجمة. كتل من الجبال الصماء . ريحٌ هادئة ، تلامس وتداعب أشجار الصنوبر. الأفق البعيد يصير باهتًا ببطء . وعلى الوادى الفسيح تهبط سكينة باردة (من ص ١٩٤ - ١٩٦) وحنه إذا كانت ترى التوأم العربى فى أحلامها الكابوسية وهما ينقضان عليها ، فإنها ترى أيضًا سائق التاكسى الإسرائيلى (رحاميم رحيموف) وهو يُطوّق خاصرتها كإنسان همجى متوحش (ص١٣٨) أى أنّ إحساسها بالخطر نابع من إحساس عام بتركيبة المجتمع الإسرائيلى ، فهى ترى أنّ مدينة القدس ((أوهام وليست مدينة)) (ص٣٤) والقدس ((مدينة تبعث على

الحزن . فى كل ساعة وفى كل موسم تُثير القدس حزنًا مختلفًا)) (ص٦٣) والقدس قلعة أشباح يسكنها أصحاب الأرواح الشريرة (ص٨٢) وتقول أيضًا ((من الذى بإمكانه أنْ يستوطن القدس ؟ أتساءل أنا . حتى لو عاش هنا مائة عام . إنها مدينة الأفنية المغلقة. مخنوقة خلف جدران كئيبة. تعلوها قطع زجاج مكسور. حاد . لاقدس . بل فتات متساقط عمدًا كى يُضلل الأبرياء . قشور داخلها قشور. إننى أسجل هنا أننى من مواليد القدس . أما أنّ القدس مدينتى ، فهذه لا أستطيع أنْ أكتبها)) (من ص٨٤- ٨٥) وأكثر من ذلك قالت ((كانت القدس بعيدة . ولم تستطع أنْ تتعقبْ آثارى . ربما تحوّلتْ فى النهاية إلى غبار. فهى تستحق . لم أحب القدس من بعيد . أضمرتْ لى الشر. أردتُ لها سوءًا)) (ص١٩٢) .

إنّ شخصية (حنه) من الشخصيات المهمة فى الأدب العالمى ، والكاتب بَرع فى تضفير همومها الخاصة بالهم العام . فهى مشغولة بفلسفة الوجود وتسأل زوجها ((مِنْ أجل ماذا نعيش ؟ قل لى من فضلك يا ميخائيل)) (ص١٧٨) وهى تعترض على زوجها عندما تلاحظ أنه يُردّد كلمات محفوظة عن أبيه فتقول له ((إنّ أباك هو الذى يتحدث الآن من حلقك)) وعندما يرد عليها ((لم أفكر فى ذلك . لكن الأمر ممكن وطبيعى . فأنا ابن أبى)) ولكنها ترفض منطقه فتقول ((الفظيع ليس فى أنك ابن أبيك . الفظيع أنّ أباك يبدأ الحديث فجأة من حلقك . وجدك زالمان ، وجدى وأبى وأمى . وبعدنا يكون ياثير(ابنها) كلنا كأننا نتعاقب شخصًا إثر شخص . كلنا مسودات . نسخة جديدة تظهر بعد الأخرى . مسودة طبق الأصل . بعد أنْ تتلف بالكرمشة تُلقى فى سلة المهملات . وتظهر مسودة أخرى بتغيير بسيط . يا له منْ انعدام للجدوى . يا له من فتور. يا لها من نكتة سخيفة)) (ص١٨١) حنه ترفض أنْ يكون مجتمعها عبارة عن نسخ كربونية ، لذلك يتفهم القارئ هواجسها وكوابيسها عنِ الذين يُهدّدون حياتها . تخشى منْ التوأم العربى ومع ذلك تحن لطفولتها معهما ، وتتمنى أنْ ينضما إلى العرب المناصرين للسلام . تعشق الحياة

بطريقتها الخاصة ، لذلك كان الكاتب موفقًا وهو يُقدّمها فى السطور الأولى من الرواية وهى تقول ((أكتب لأنّ أناسًا أحبهم قد ماتوا . أكتب لأننى حين كنتُ صبية كانت لدىّ القدرة على الحب . أما الآن فإنّ قدرتى على الحب تموت . أنا لا أريد أنْ أموت)) لذلك جاء قرارها بالانفصال عن زوجها بشكل فنى بديع ، ومُتسقًا مع شخصيتها .

***

الدفاع عن بقاء دولة إسرائيل ، رغم اختلاف التيارات السياسية والثقافية ، الدعوة إلى السلام ، إدانة الأصوليين اليهود ، الصراع بين الأصوليين والعلمانيين ، هذه المحاورالتى تناولتها الرواية ، هى أيضًا مواقف الكاتب الذى قال للناقد الأمريكى (ديفيد سباتر) : ((على السطح فى إسرائيل هناك ثقة فى النفس هائلة. رصيد ضخم من اللامبالاة. ومن إجابات سخيفة تدور فى أى ذهن وتتمثل فى «لاتنزعج . نحن نستطيع أنْ نحل كل شىء . ونتغلب على كل صعوبة» ولكن هذه الثقة تطفح على السطح فقط، بينما فى العمق ، وفى داخل طيات الضمير والعقلية الإسرائيلية ، هناك شعور قديم بالفزع اليهودى التقليدى . هذا الفزع يُبرهن عن نفسه فى الشعور بالذنب تجاه العرب . ويؤدى فى حالة بطلة هذه الرواية إلى نزوات انتقامية)) وفى حديث آخر سأله أحد النقاد الأمريكيين : هل لازال يأمل أنّ دولة علمانية ديموقراطية تستطيع البقاء فى إسرائيل ؟ فقال ((التطرف الدينى والتعصب حققا ارتفاعًا هائلا ، ليس فقط فى القدس ، ولكن فى أماكن كثيرة أخرى من العالم تحت سيطرة الإسلام ، المسيحية ، وبالتأكيد اليهودية. سيؤدى ذلك إلى سيطرة الدينيين الأصوليين على القدس . إننى لن أعتبر موجة التطرف الدينى فى إسرائيل ظاهرة عابرة . إنها ثابتة وقائمة)) .

وعاموس عوز مؤلف الرواية اشترك فى حركة السلام الآن . واشترك فى لجنة السلام الفلسطينية الإسرائيلية. ومع إقامة الدولة الفلسطينية. وخلال الاعتداء على لبنان عام ١٩٨٢ قاد مظاهرة ضد مناحم بيجين رئيس الوزراء الأسبق ، مُذكرًا إياه

أنّ هتلر قد مات . ونشر قصة قصيرة فى مجلة اليوم السابع تدور حول أم تشعر أنّ احتلال القدس فى حرب ١٩٦٧ ، لايُساوى إصبعًا واحدًا من أصابع ابنها الذى فقدته فى تلك الحرب (من مقدمة المترجم) .

***

تبقى ملحوظة خاصة بالمترجم : فإذا كان ابن ميخائيل عندما سمع قصة خروج اليهود من مصر((كان لديه اعتراض منمق على أقوال التوراة)) واذا كان مِنْ حق أى مترجم التعليق على أية أخطاء تاريخية تتعارض مع لغة العلم ، وهوما فعله العديد من المترجمين ، لذلك كنتُ أتوقع من مترجم رواية (حنه وميخائيل) أنْ يستشهد بأقوال العلماء الذين فنّدوا افتراءات بنى إسرائيل ضد جدودنا المصريين القدماء ، أمثال جيمس فريزرالذى نفى أنْ يكون قد صدر أمر منْ أحد الفراعنة بطرح كل أطفال العبريين فى الماء (الفولكلور فى العهد القديم – ترجمة د. نبيلة إبراهيم- هيئة الكتاب المصرية- عام ١٩٧٤- ج ٢ ص ١٢) أو سيجموند فرويد الذى كتب أنّ القصة التى ترويها التوراة عن موسى والخروج ليست أكثرمن أسطورة دينية (موسى والتوحيد- ترجمة د. عبدالمنعم الحفنى- ص ٨٤ ، ١٠٩ ، ١٣٥) أو د. محمد بيومى مهران الذى كتب ((انتهتْ الأمور باليهود أنْ نسوا لمصر أنها أطعمتهم وآوتهم ، فردوا لها الجميل نكرانًا ، وكانوا عليها للفرس أعوانًا وفى حاميتهم جنودًا . وهم أعوان الهكسوس وخونة وجواسيس وأذناب لأعداء البلاد)) (تاريخ الشرق الأدنى القديم – دارالمعارف بمصر عام ١٩٧٦- ج ٣ ص ٣٢٥ ، ٣٨٤) وكتب أ. شفيق مقّار أنّ ((اليهود كانوا رعاة رحل جياع تسلّلوا عبرحدود مصرليأكوا وينهبوا)) (قراءة سياسية للتوراة- رياض الريس للكتب والنشر- ص ٩٢) وكتب جورج هربرت ويلز((إنّ قصة استيطان بنى إسرائيل مصر واستعبادهم فيها وخروجهم منها قصة صعبة للغاية. ففى تاريخ مصر ذكر لأقوام من الرعاة الساميين سُمحَ لهم بالإقامة فى أرض جاسان (الشرقية حاليًا)

بإذن من الفرعون رمسيس الثانى . وفى هذا السياق قال التاريخ إنّ جعل أولئك الناس يلجأون إلى مصر كان الجوع ، إلاّ أنه لاذكر هناك إطلاقًا فى أى شىء مما سجّله تاريخ مصر لشخص اسمه موسى ، أوأى ذكر لسيرته ، كما أنه لاذكرهناك لأية ضربات أو كوارث طبيعية حلّتْ بمصر أو لأى فرعون غرق هو وجنوده فى البحرالأحمر)) (نقلا عن شفيق مقار- المصدرالسابق- ص ٣١١) .

لم يُقدّم مترجم الرواية هذه الخدمة لقارئه ، وإنما اكتفى فى الهامش رقم (٤١) بأنْ لخص قصة الخروج كما وردتْ فى سفرالخروج . واعتصرنى الألم (أثناء القراءة وبعدها لعدة سنوات) وأنا أقرأ فى الرواية على لسان الأصولى اليهودى ((فى هذا الوقت قواتنا تُطارد جيش فرعون الهارب . والبحر لم ينغلق لمجرمى مصر)) (ص ١٥٥ من الرواية) واستدعيتُ كل قراءاتى فى علم النفس لأعرف الحالة الشعورية للمترجم وهو يُترجم افتراءات بنى إسرائيل ضد جدودنا المصريين القدماء وضد المصريين المعاصرين . طبعًا فشلتْ محاولتى واستبعدتُ أنْ يكون المترجم من المؤمنين بالتراث العبرى المعادى للحضارة المصرية ، ولكن آلمنى أكثر أنّ المترجم الذى قرأ العهد القديم ، لم يكتشف أنّ المجرمين الحقيقيين من واقع معظم أسفار العهد القديم هم اليهود ، وبالتالى كانت أمامه فرصة للرد على أكاذيب الأصوليين اليهود من واقع كتابهم الذى يُقدّسونه . وكمثال واحد فإنّ إله العبريين يُحرّض بنى إسرائيل على سرقة المصريين ، فيقول لهم ((حينما تمضون أنكم لاتمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين)) (خروج ٣ : ١٨ - ٢٢) وأكثر من ذلك تحويل أرض مصر ونيلها وحقولها وبيوتها إلى دم . وإصدار الأوامر للبعوض والذبان والقمل لهلاك المصريين والقضاء عليهم ، بما يُعرف باللعنات العشر. بل إنّ هذا الإله العبرى ينزل بنفسه فى منتصف الليل ليقتل كل بكر فى أرض مصر (انظر : أسفار الخروج والتثنية والعدد على سبيل المثال) .

obeikan.com

الفصل السابع

جدل العلاقة بين مصر وفلسطين وإسرائيل وقضية حدود الدولة والدفاع عن الوطن

ترتّب على الصراع الفلسطينى / الإسرائيلى بعض المقولات المتعلقة بمصر، مثل أنّ تصدى مصر لإسرائيل هو فى مصلحة مصر قبل مصلحة فلسطين. وأنّ كل الحروب التى خاضتها مصر ضد إسرائيل، كانتْ دفاعًا عن أمن مصر، وليس دفاعًا عن فلسطين. أما أخطر تلك المقولات فهى (حصر) حدود مصر عند الحدود الشرقية، وهى مقولات فى حاجة للمناقشة.

المقولة الأولى صحيحة ولكن بشرط أنْ تكون مصر مُحتلة أو مُهددة بالاحتلال من إسرائيل. فهل كانت مصر عام ١٩٤٨ مُحتلة أو مُهددة بالاحتلال من إسرائيل؟ بالطبع فإنّ الإجابة بالنفى، لأنّ العصابات الصهيونية كانتْ تستهدف احتلال فلسطين، ومع ذلك دخلتْ مصر فى حرب ضد هذه (العصابات)، انتهتْ بهزيمة الجيش المصرى وهزيمة جيوش خمس دول عربية. والسؤال المسكوت عنه هو: هل يستطيع العقل الحر إنكار أنّ دخول مصر فى الحرب ضد (الصهاينة) عام ٤٨ ترك أثرًا فى نفوس وعقول اليهود الذين احتلوا فلسطين؟ وأنه منذ ذلك التاريخ اعتبرتْ إسرائيل أنّ مصر

عدوة عا ، طالما أنها تُساند الفلسطينيين ، وترفض كل عروض السلام التى اقترحتها إسرائيل على مصر، منذ عام ١٩٥٣ ، خاصة أنّ العلاقة بين اليهود والفلسطينيين عكس الصورة التى روّج لها الإعلام العروبى ، من ذلك ما ذكره المؤرخ أ. عبدالله عنان ، إذْ إنه عندما زارالقدس عام ١٩٢٦ ((لفت نظرى اتصال الفلسطينيين فى بيت المقدس باليهود اتصالا عاديًا فى الحياة العامة والخاصة. ومعرفة الكثير من شبابهم للغة العبرية. وتحدثهم بها مع اليهود . وتزوج الكثير منهم بزوجات يهوديات فى غاية الحسن والجمال)) (ثلثا قرن من الزمان- كتاب الهلال- يناير٨٨ ص ٨٧ ، ٨٨) وأين كان الفلسطينيون عندما تم إنشاء مدينة باسم (تل أبيب) عام ١٩٢٦ ؟ (المصدرالسابق ص ٨٩) وأين كان الفلسطينيون عندما تم إنشاء صحيفة ها آرتس (ومعناها الأرض) عام ١٩١٩ ؟ إلى آخر الترتيبات والإجراءات التى تمتْ على أرض فلسطين من قِبل الصهاينة منذ أوائل القرن العشرين ، على النحو الوارد فى الفصول السابقة ؟ المهم أنه بعد حرب ٤٨ اعتبرتْ إسرائيل أنّ مصر عدوة لها طالما استمرتْ فى رفع شعارات تحرير فلسطين من العدو الصهيونى ، والكثير من الشعارات (التى لاتمتلك قوة التنفيذ من جهة ، وتستفز إسرائيل من جهة ثانية) مثل إلقاء إسرائيل فى البحر. ووصل الأمر لدرجة أنه فى محضر جلسة (القيادة السياسية الموحدة) المنعقدة فى القاهرة فى الفترة من ١٩- ٢٥ مايو١٩٦٥ وبرئاسة عبدالناصر، تم الاتفاق على عدة أهداف لمواجهة (الأخطار التى تواجه الأمة العربية) كان من بينها أنّ ((الهدف القومى العربى هو القضاء على إسرائيل)) (أنظر نص محضر الجلسة فى كتاب «عبدالناصر وتحرير المشرق العربى» تأليف فتحى الديب- مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام- عام ٢٠٠٠ ص ٦٨٨) أى أنّ مصر- رغم أنها لم تخض إلاّ حربًا واحدة ضد إسرائيل لصالح الشعب الفلسطينى- فإنّ استمرار الدعم السياسى والمادى للفلسطينيين (بالاضافة إلى الشعارات الجوفاء المستفزة لإسرائيل) كل ذلك تسبّب فى تعقيد العلاقة بين مصر

وإسرائيل ، لذلك فإننى أعتقد أنّ دخول مصر فى حرب ٤٨ هو المدخل لفهم علاقة مصر فى الصراع الفلسطينى / الإسرائيلى . ولعلّ السؤال بمفهوم المخالفة : ما هو موقف إسرائيل لو أنّ مصر رفضتْ الدخول بجيشها فى حرب ٤٨ ؟ كما طالب بعض السياسيين المصريين ومن بينهم رئيس الوزراء آنذاك محمود باشا فهمى النقراشى ؟ ولو طبّقنا علم الاحتمالات ، فإنّ السؤال هو: أليس عدم اشتراك الجيش المصرى عام ٤٨ (فرضًا كما طالب بعض المصريين) كان سيُغيرموقف إسرائيل من مصر ؟ خاصة لو وضعنا فى الاعتبار ما قاله الحاج أمين الحسينى (مفتى فلسطين) حيث ذكرأنّ سياسة مصر كانتْ ((مؤيدة وموافقة كل الموافقة لرغبة المسئولين من الفلسطينيين فى ألاّ تدخل الجيوش العربية إلى فلسطين بل يقوم الفلسطينيون أنفسهم بالدفاع عن بلادهم وأنْ تُقدّم لهم المساعدة بالسلاح والذخائر والأموال وكل الوسائل الممكنة)) (انظرمحمد حسنين هيكل- العروش والجيوش- دارالشروق- عام ٩٨ ص ٤٤١) كما ذكر هيكل أنّ الجيوش العربية تخلّتْ عن مساعدة الجيش المصرى فى معارك النقب فى شهرىْ نوفمبر وديسمبر٤٨ (المصدرالسابق ص ٤٤٥) وقال بن جوريون ((إذا تجرّأتْ مصرعلى القتال فلابد أنْ نضرب بورسعيد والاسكندرية وحتى القاهرة)) (يوميات بن جوريون بتاريخ ٢٤/ ٥/ ٤٨ – نقلا عن هيكل- المصدرالسابق ص ١٣٦) كذلك علينا أنْ نتخيل مسار السيناريو الذى تم عرضه على عبدالناصر بعد شهور من استيلائه على السلطة، أى محاولات التفاوض المباشر مع إسرائيل ، لوضع تصور لمستقبل الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، وإمكانية التوصل إلى اقتراحات عملية تُحقق الاستقرار بالطرق السلمية وتُرضى الطرفين (الفلسطينى والإسرائيلى) رفض عبدالناصر (الجلوس) مع الإسرائيليين فى أوائل عام ١٩٥٣، ولكنه بعد أنْ تسبب فى كارثة بؤونة / يونيو٦٧ وبعد أنْ استباح الطيران الإسرائيلى سماء مصر فى السنوات التى تلت هذه الكارثة / المذبحة وقتل (= الطيران الإسرائيلى) أطفال

مدرسة بحر البقر فى محافظة الشرقية وعمال مصنع أبوزعبل وضرب مدينة الفيوم وحى المعادى إلخ ، بعد هذه الجرائم الإسرائيلية اضطر عبدالناصر أنْ يقبل المبادرة الأمريكية المعروفة باسم (مبادرة روجرز) يوم ٢٥/ ٦/ ١٩٧٠ وكان عبدالناصر يتوقع الهجوم عليه من الفلسطينيين ومن العروبيين ، فقال فى تبريره لقبول هذه المبادرة الأمريكية ((إنّ المضى فى حرب الاستنزاف ، فى حين أنّ إسرائيل تتمتع بتفوق جوى كامل ، معناه – ببساطة – أننا نستنزف أنفسنا)) (انظرد. عبد العظيم رمضان – حرب الاستنزاف بين الحقيقة والافتراء – هيئة الكتاب المصرية- عام ٩٨ ص ٤٨) وأعتقد أنّ العقل الحر هو الوحيد القادر على تخيل واقع مصر وفلسطين والمنطقة كلها ، لو أنّ عبدالناصر وافق على مفاوضات السلام عام ١٩٥٣ ، وبالتالى فإنّ هذا العقل الحر له أنْ يسأل : لماذا كان الانتظار حتى عام ١٩٧٠ ؟ أليس من المحتمل (وهو افتراض مشروع) أنّ مفاوضات السلام لو تمّتْ فى عام ٥٣ كانتْ ستُجنّبْ مصر وفلسطين ولبنان والأردن شر الحروب التى يدفع ثمنها البشر من الفلاحين والعمال والموظفين إلخ بينما الرؤساء والزعماء يتابعون الأخبار من قصورهم ؟

كما أنه يصعب الدفاع عن موقف مصر عام ١٩٥٦ فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ، فالعدوان الثلاثى ضد مصر الذى اشتركتْ فيه إسرائيل ، كان بسبب تأميم قناة السويس . ولكن هل أجرى عبدالناصر، وهو يتخذ قرار التأميم بالإرادة المنفردة كعادته ، رد فعل الدول التى تعتبرنفسها مضارة من هذا القرار؟ إنّ صاحب أية منشأة صغيرة (حتى ولو كانت «سوبرماركت» يطلب من الخبراء إجراء « دراسة جدوى» لكل الظروف المحيطة بالمشروع ، لقياس درجات النجاح ودرجات الفشل) فهل طلب عبدالناصر إجراء دراسة علمية تقول له فى نهايتها : إن ردود أفعال (الدول الاستعمارية) التى لم يتوقف لحظة واحدة منذ كارثة يوليو٥٢ عن الهجوم عليها ، سوف تكون كذا وكذا ؟ وكيف سيكون تصرف هذه الدول

(الاستعمارية) ؟ وكيف غاب عن وعى عبدالناصر أنّ إسرائيل هى ((ربيبة الاستعمار)) كما كان يقول دائمًا ؟ والأخطر من ذلك ما ورد فى خطاب التأميم ، إذْ قال عبدالناصر ((إنّ الاستعمارأقام إسرائيل من أجل تفكيك الوحدة العربية. سنُناضل ضد لاستعمار وضد إسرائيل التى أقيمتْ على يديه والتى تطمح إلى احتلال المنطقة من الفرات إلى النيل)) إننى أرجو العقل الحر أنْ يسأل : ما علاقة تأميم القناة ، بالنضال ضد الاستعمار وإسرائيل ؟ لماذا لم يكتف بإعلان قرارالتأميم بشكل حضارى ؟ أليس ذكر الاستعمار وإسرائيل فى قرار التأميم هو بلغة أولاد البلد المصريين (جر شكل) وكانتْ النتيجة (التى كان يجب أنْ يتوقعها أى زعيم يحرص على مصلحة شعبه) اشتراك إسرائيل فى الحرب ضد مصر بعملية (قادش) كما ترتب على قرار التأميم تدمير مدن القناة وقتل آلاف المصريين المدنيين والعسكريين . وقامت بريطانيا بتجميد الأرصدة المصرية بالجنيه الاسترلينى ، وتجميد ممتلكات قناة السويس . وذكر عبداللطيف البغدادى فى مذكراته أنّ عبد الناصر طلب من د. عبدالمنعم القيسونى أنْ ((يعمل على تحويل أكبر قدر ممكن من هذه الأرصدة من بنوك كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا إلى دول أخرى . ولضيق الوقت لم يتمكن القيسونى من تحويل كل أرصدتنا التى كانت لدى بنوكهم)) هذا غير التعويضات التى دفعتها مصر لأصحاب الأسهم عند إغلاق بورصة لندن فى اليوم السابق للتأميم)) (المكتب المصرى الحديث عام ٧٧ ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢٨) كما ترتب على ذلك ضياع فرصة استرداد مبلغ ٤٠٠ مليون جنيه وهو المبلغ الذى كانت بريطانيا مدينة به لمصر، ووفق ما ذكره أ. طارق البشرى فإنه لم يُفرج عن هذه الأرصدة (الديون) إلاّ بمقادير ضعيفة مما أفقد السداد أهميته فى بناء الاقتصاد المصرى (الديموقراطية ونظام يوليو٥٢ - كتاب الهلال- ديسمبر٩١ ص ٥٦ ، ٥٧) انسحبتْ الجيوش المعتدية ، بفضل الانذارالأمريكى ، لتحقيق مصلحة أمريكية ، وليس حبًا فى سواد عيون المصريين ، لأنّ أمريكا قرّرتْ أنْ تحل محل

الاستعمارالقديم . وفى تحليله لسنوات ٥٥- ١٩٦٥ ذكرد. جلال أمين أنّ قادة يوليو اتخذوا بعض الاجراءات التى تتفق مع مصالح أمريكا مثل مساعدة ثوارالجزائر ضد فرنسا ، والعراق ضد بريطانيا ، والأردن ضد القائد البريطانى جلوب ، ولبنان ضد كميل شمعون وممثلى النفوذ الفرنسى (مجلة الهلال- يوليو٢٠٠٢) أما أخطر(فخ) نصبته أمريكا لتوريط الجيش المصرى ، فكان فخ اليمن ، أو (البالوعة) أو(المصيدة) وفق تعبيرالرئيس الأمريكى جونسون . المهم انسحبتْ الجيوش المعتدية بفضل الإنذارالأمريكى ، وكان ثمن الانسحاب باهظًا ، حيث ضغطتْ إسرائيل على الأمم المتحدة بأنّ الانسحاب الإسرائيلى سيتم من منطقتى شرم الشيخ وقطاع غزة بشرط حرية الملاحة الإسرائيلية فى خليج العقبة ومضايق تيران . وهذا الشرط هو ما وافقتْ عليه الأمم المتحدة بقرارمجلس الأمن رقم (١) لسنة ٥٧ هذا بالاضافة إلى تمركز قوات الأمم المتحدة فى غزة وشرم الشيخ .

كان عقد امتيازشركة قناة السويس ينتهى فى عام ١٩٦٨ أى بعد ١٢ سنة من تاريخ قرار التأميم . وكان بوسع أى زعيم سياسى يضع مصلحة شعبه فى المرتبة الأولى من توجهاته ، أنْ ينتظر انتهاء المدة القانونية احترامًا لقواعد القانون الدولى ، كما فعلتْ الصين التى استردتْ مستعمراتها بعد انتهاء سنوات الامتياز أوانتهاء سنوات السيطرة الاستعمارية. فعلتْ الصين ذلك بشكل حضارى ، ولم تنل حقها فى أراضيها فقط . وإنما نالتْ احترام الشعوب المتحضرة. واذا كان عبدالناصر لم يهتم بإجراء دراسة علمية عن ردود أفعال الدول الاستعمارية ، فإنّ الأخطر هو رفضه العمل بنصيحة البكباشى ثروت عكاشة الذى أرسل خطابًا من فرنسا (وكان يشغل منصب الملحق العسكرى بفرنسا) يوم ١٥/ ٥/ ٥٦ إلى عبد الناصر قال فيه : إنّ فرنسا مستاءة من هجوم إذاعة (صوت العرب) عليها . وتأييد مصر لثوار الجزائر منذ عام ٥٤ وإمدادهم بالمال والسلاح بل وتدريبهم على القتال فى معسكرات مصرية. وحذر ثروت عكاشة من أنّ فرنسا سوف تتخذ عدة مواقف ضد مصر لو

استمرت القيادة المصرية فى سياستها ضدها ، من بين هذه المواقف (التى تمتْ بالفعل) امتناع فرنسا عن شراء القطن المصرى ، الأمرالذى تسبب فى خسارة مصر ١٥ مليون جنيه إسترلينى . ولكن أهم ما ورد فى خطاب ثروت عكاشة ، ووفق تعبيراته بالنص ((تجنب الصدام مع فرنسا لتفادى تأييدها لإسرائيل ومساعدتها ضد مصر (بسبب تأييد مصر لثوارالجزائر) (فتحى الديب – مصدر سابق- ص ٨٦ ، ٢٤٠) وبعد عدة شهور تحققتْ نبوءة ثروت عكاشة ودفعتْ مصرالثمن عندما اشتركت فرنسا فى حرب السويس عام ٥٦ ضد مصر، متضامنة (فرنسا) مع إنجلترا وإسرائيل . أى أنّ كارثة العدوان الثلاثى عام ٥٦ والدمار الذى لحق مدن القناة ، وقتل آلاف المصريين (مدنيين وعسكريين) وتدميرالاقتصاد المصرى إلخ ، لايمكن عزل كل هذه الكوارث عن شعارات العروبة وتحرير فلسطين والقضاء على إسرائيل .

كذلك كارثة بؤونة / يونيو٦٧ ليس لها علاقة مباشرة بقضية فلسطين ، بينما علاقتها وطيدة بآفة (القومية العربية والوحدة العربية) فهذه الكارثة كان من الممكن تجنبها لو كان يحكم مصر ساسة يُفكرون فى مصر قبل أوهام العروبة ، فإذا كان سبب حشد الجيش المصرى فى سيناء ، وطرد بعثة الأمم المتحدة إلخ هو ((وجود تحركات إسرائيلية على الحدود السورية)) فإنّ عبدالناصر رفض تصديق التقاريرالمصرية التى أكدتْ أنه لاتوجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية ، كما ذكر د. مراد غالب فى مذكراته وكثيرون غيره . وذكر المشيرمحمد عبد الغنى الجمسى فى مذكراته أنّ أحداث هزيمة يونيو٦٧ ((بدأتْ بمعلومات غيرصحيحة عن حشد للقوات الإسرائيلية على الحدود السورية للاعتداء عليها)) وزاد من تضليل شعبنا المصرى ((أنّ التقارير(الموثوق بها) أفادتْ خلال الأيام الماضية منذ بداية مايو٦٧ أنّ هناك حشدًا إسرائيليًا ضخمًا على حدود سوريا ، بغرض القيام بعمليات داخل الأراضى السورية ، بهدف إسقاط حكم (تحررى) عربى ، وايجاد حكم رجعى

عميل فى سوريا ، وإيقاف حركة التحرر من أجل فلسطين)) وأضاف المشيرالجمسى ((ومن معرفتنا الكاملة بجميع الظروف العالمية والملابسات الدولية المحيطة بالموقف ، وكذا بموقف القوى الاستعمارية التى تساند إسرائيل ، ومع تقديرنا لما قد يتصوره أعداؤنا من أننا قد (نتورّط) فى معركة فى وقت غير ملائم لنا ، فإنه بعد دراسة جميع الاحتمالات ، قرّرنا الوقوف موقفًا حاسمًا من تهديدات إسرائيل العسكرية بالتدخل الفورى فى حالة قيام أى عدوان إسرائيلى على سوريا)) ولكن هل حدث تهديد إسرائيلى على الحدود السورية ؟ يعترف المشيرالجمسى بأنّ ذلك لم يحدث ، وكتب ((وبتكليف من المشيرعامر سافرالفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان إلى سوريا فى نفس اليوم (١٤ مايو) للتأكد من حشد القوات الإسرائيلية على الحدود السورية ، وإجراء التنسيق العسكرى بين سوريا ومصر. تفقد الفريق أول فوزى قيادة جبهة سوريا ، وبحث مع المسؤولين العسكريين فى رئاسة الأركان (السورية) الموقف لمعرفة مدى صحة المعلومات التى وصلت إلى مصر من سوريا والاتحاد السوفيتى ، وكانت النتيجة كما ذكرالفريق أول محمد فوزى فى كتابه (حرب السنوات الثلاث ٦٧ – ١٩٧٠ ص ٧١ ، ٧٢) : « إننى لم أحصل على أى دليل مادى يؤكد صحة المعلومات ، بل العكس كان صحيحًا ، إذْ أننى شاهدتُ صورًا فوتوغرافية جوية عن الجبهة الإسرائيلية ، التقطتْ بواسطة الاستطلاع السورى يومى ١٢ ، ١٣ مايو ٦٧ فلم ألاحظ أى تغيير للموقف العسكرى العادى» . انتهى كلام الفريق أول محمد فوزى ، وكان تعقيب المشيرالجمسى ((عاد الفريق أول فوزى للقاهرة يوم ١٥ مايو، وقدّم تقريره للمشير عامر، وهوالتقريرالذى ينفى وجود حشود إسرائيلية على الجبهة السورية ، وسجل انطباعه قائلا « لم ألاحظ أى ردود فعل لديه (= لدى المشيرعامر) عن سلبية الوضع على الحدود السورية / الإسرائيلية . ومن هنا بدأتُ أعتقد أنّ موضوع الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا ، هو من وجهة نظرالمشيرعامر ليس سببًا وحيدًا أو رئيسيًا فى إجراءات

التعبئة والحشد فى سيناء بعد الزيارة » كان هذا هو كلام الفريق أول محمد فوزى بعد عودته من سوريا ، وكان التعقيب الأخير للمشيرالحمسى ((وبرغم هذه الحقيقة التى أوضحتها زيارة الفريق أول فوزى لسوريا ، فقد استمر الحشد فى سيناء بعد الزيارة)) (انظر مذكرات الجمسى – حرب أكتوبر١٩٧٣ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – عام ١٩٩٨ – ص ١٩ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠) فى الحيثيات السابقة نلاحظ أنّ التقريرالمصرى تحدث عن أنّ هدف إسرائيل من التحرش بسوريا هو((إسقاط حكم (تحررى) عربى)) فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يتم تحريرالجولان السورية منذ عام ٦٧ وحتى كتابة هذه السطور فى عام ٢٠٠٩ أى أنّ الجولان محتلة من إسرائيل لأكثر من ثلاثين عامًا ، وبعد كارثة بؤونة / يونيو ٦٧ وبعد حرب ٧٣ انشغلتْ سوريا بالتدخل السافر فى شئون لبنان ، التدخل الذى وصل لدرجة السيطرة الكاملة ، بما يشبه الاحتلال ، ولدرجة أنّ شوارع ومطارات لبنان كانت تمتلئ بالصورالضخمة للرئيس حافظ الأسد . ولكن الدرس المهم – فيما يتعلق بمصر – هو : ما مغزى كلام الفريق أول محمد فوزى بعد عودته من سوريا ((بدأتُ أعتقد أنّ موضوع الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا ، هو من وجهة نظرالمشيرعامر ليس سببًا وحيدًا أو رئيسيًا فى إجراءات التعبئة والحشد فى سيناء بعد الزيارة)) ؟ لماذا أصرّ عبدالناصرعلى حشد القوات المصرية فى سيناء وطرد بعثة الأمم المتحدة إلى آخرالإجراءات التى اتخذها فى شهر مايو٦٧ ومهّدتْ لكارثة بؤونة / يونيو التى أطلق عليها الاعلام العروبى اسم الدلع (نكسة) ؟ لماذا أصرّ عبدالناصر على حشد القوات المصرية فى سيناء ، رغم أنّ تقريرالفريق أول محمد فوزى أكد أنه لاتوجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية ، وباعتراف السوريين أنفسهم ؟ وما مغزى حشد قوات مصرية فى سيناء ، رغم أنّ هذه القوات لم تتلق أية تدريبات سابقة للدخول فى حرب مع إسرائيل ؟ (إرسال آلاف الفلاحين المصريين من احتياطى الجيش إلى سيناء بالجلابيب " نموذجًا » كما أنّ أكثر من ثلث الجيش

المصرى كان لايزال موجولا فى بالوعة اليمن «نموذجًا ثانيًا ») وباختصار: ما مغزى إعلان الحرب على إسرائيل والقوات المسلحة المصرية ليست مؤهلة للدخول فى هذه الحرب ، والدليل على ذلك حجم الخسائر المصرية التى فاقتْ كل تصور؟ فهل كنتُ مغاليًا عندما ذكرتُ فى دراساتى أنّ عبدالناصر هو مهندس هزيمة يونيو ٦٧ ؟ خاصة أنه اعتمد على قيادات عسكرية لم تتلق أية تدريبات ، وليس لهم أية دراسات عسكرية ، وكان معظمهم يقضون أوقاتهم ويُخصصون كل اهتماماتهم بفرق كرة القدم ، أو بقضاء الوقت مع الراقصات والممثلات فى سهرات ماجنة . كما اعتمد عبدالناصر على بعض القيادات المعروف عنها تلفيق التقارير الكاذبة ، من ذلك ماذكره أحد السفراء المصريين فى مذكراته من أنّ شمس بدران مديرمكتب المشير عبدالحَكيم عامر، ووزيرالحربية قبيل هزيمة بؤونة / يونيو٦٧ والذى كان عبدالناصر ينوى تسليمه الرئاسة بعد الهزيمة ، عاد شمس بدران من موسكو التى أرسله إليها عبدالناصر، قبل الحرب بأيام ، وصرّح فى مجلس الوزراء بأنّ ((الاتحاد السوفيتى معنا ، وأنهم مستعدون لضرب الأسطول الأمريكى السادس ، وسيُشفونه عظمًا ولحمًا ، أى سيُمزقونه)) ولكن السفيرالفقى (وكان عضوًا فى الوفد المرافق لشمس بدران) كذّب هذا القول ، وقال : إنّ الاتحاد السوفيتى لم يعد بشىء إطلاقًا من هذا القبيل ، وأنّ شمس بدران كان مشغولا كل الوقت بشراء أثاث ولوازم لمنزله)) (انظرالتفاصيل فى كتاب « أول الحكاية – حكايتى مع الدبلوماسية» تأليف الأستاذ جميل مطر- سلسلة كتاب الهلال المصرى – العدد رقم ٦١٦- إبريل ٢٠٠٢ ص ١٧، ١٨) كما ذكرالسفيرأحمد الفقى فى مذكراته ، أنّ عبدالناصر برّر أمامه عدم قدرته على التعليق على تقرير كتبه أحد السفراء المصريين عن أحوال مصر قائلا ((لأنى وأنا رئيس الجمهورية كنتُ مغلوبًا على أمرى من المشير وعصابته)) (المصدرالسابق ص ١٩) فإذا صدّقنا هذا التبرير، فإنّ النتيجة هى أنّ رئيس الدولة الذى اعتقل المواطنين الشرفاء ، من كل التيارات – لمجرد أنهم كانوا

يُعبرون عن آرائهم الفكرية والسياسية والاقتصادية – كان (أى عبدالناصر) مغلوبًا على أمره من المشير وعصابته ، فلماذا رضى بالذل لنفسه ، من أذلّ المصريين جميعًا ؟

وفى شهادته عن هذه الفترة الحالكة من تاريخ مصر الحديث ، كتب المؤرخ المستشار طارق البشرى ((بلغ من ابتعاد عبدالناصر عن معرفة أوضاع الجيش ، أنه فى صميم أزمة مايو ١٩٦٧ التى انتهتْ بحرب يونيو وهزيمتها المعروفة ، لم يكن عبدالناصر على بينة من حالة سلاح الطيران المصرى ، ولا كان قادرًا على سؤال المشير فى هذا الشأن ، وذلك حسبما يُفهم من مذكرات محمود رياض وزير الخارجية (آنذاك) وفى صميم هذه الأزمة كذلك طلب المشير من عبدالناصر أنْ ينقل إلى وزارة الخارجية عشرة من قيادات الضباط الذين فوجئ محمود رياض بأسمائهم ، لسابق معرفته بأنهم من القادة الأكفاء ، وكان فى مقدمة هؤلاء اللواء أحمد إسماعيل الذى قاد – فيما بعد – حرب ١٩٧٣ . وقد سلم عبدالناصر طلب المشير وقائمة الأسماء إلى محمود رياض دون اعتراض واضح منه . كما (ذكر) محمد فوزى أنّ عبدالناصر لم يكن على معرفة بشؤون الجيش على مدى أعوام سابقة ، حتى أسماء القادة الكبار ومنهم دفعته.. إلخ)) (لمزيد من التفاصيل انظر «الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو – ١٩٥٢ – ١٩٧٠ تأليف طارق البشرى – كتاب الهلال – العدد ٤٩٢ – ديسمبر ٩١) أما الأستاذ أمين هويدى (الذى شغل عدة مناصب قيادية ومنها المخابرات) فذكر فى مذكراته الكثير من الأمثلة عن أوجه تقصير ((القيادة العسكرية ، فى تجهيز الخطط وتعديلها بالسرعة المطلوبة ، وفى التدريب المستمر ، وقت السلم لتكون مهيئة لعملها وقت الحرب ، وفى تفرغ الوحدات لمسرح العمليات ووضع خطط التعبئة وتجربتها وإجراء المناورات وتدريب الرئاسات . وذكر أنّ الثابت أنه لم يُخصص من الوقود (البنزين) لأغراض التدريب أكثر من ٥ ٪ من حجم الوقود المخصص للقوات المسلحة . كما أنّ القوات الجوية عجزتْ عن تدريب الطيارين ، فلم يُجاوز عددهم ١٥٠ طيارًا ، بينما كانت الطائرات القاذفة والمقاتلة الصالحة يبلغ

عددها ١٥٤ طيارة ، ويُقارن ذلك بالوضع فى إسرائيل حيث كان لديها ألف طيار للعمل على ٣٧٦ طيارة . وينتهى من ذلك إلى أنّ قيادة الجيش ((فرّطتْ فى الأمانة التى وضعتها البلاد بين يديها ، فأهملتْ إعداد قواتها ... تفريط فى الأمانة ، واستهانة بمقدرات الشعب وعدم تقدير الأمور)) ثم أشار إلى المعلومات داخل الجيش المصرى عن العدو، فيصفها بأنها لم تكن متيسرة ، سواء عن مطارات العدو أو أرضه أو مستودعاته. ولم يكن فى المقدور تمييز طائر ت العدو)) (المصدر السابق – ص ٣٥١).

أما حرب ٧٣ فكانت من أجل تحرير سيناء ، وهى قضية ليست محل خلاف .

***

يتبقى أخطر المقولات وهى (حصر) حدود مصر فى الحدود الشرقية ، وكأنّ مصر ليستْ لها حدود أخرى ، وكأنّ الخطر على أمن مصر القومى ، لا يأتى إلاّ من الحدود الشرقية .

إنّ مساحة مصر ١٠٤١١١٥ كم مربع . وتقع فى الركن الشمالى الشرقى من قارة إفريقيا . يحف بها من الشمال البحر المتوسط . وفى الشرق فلسطين وخليج العقبة والبحر الأحمر. وفى الجنوب خط عرض ٢٢ درجة شمالا ، ويُمثل الحدود بينها وبين السودان . وفى الغرب خط طول ٢٥ درجة شرقًا ، وهى إلى حد كبير بينها وبين ليبيا . وتنقسم أراضى مصر جغرافيًا إلى ثلاثة أقسام كبرى : الصحراء الشرقية ويلحق بها جزيرة سيناء ، وأراضى النيل ويدخل فيها منخفض الفيوم . ثم الصحراء الغربية. أما الصحراء الشرقية فمساحتها ٢٢٣٠٠٠ كم مربع تشمل الهضبة الممتدة من وادى النيل إلى البحر الأحمر. أما الصحراء الغربية فتشمل أكثر من ثلثىْ مساحة مصر.

هذه هى حدود مصر الجغرافية. كما أنها ملتقى ثلاث قارات . والبحر الأبيض المتوسط يُفرّق ويصل بين مصر وأوروبا . والبحر الأحمر يصل مصر بصفة خاصة

بالشرق والشرق الأقصى . فإذا أضفنا إلى ذلك أرضها الخصبة بسبب وجود طمى النيل (قبل بناء السد العالى بالطبع) لدرجة أنّ ابن عبدالحكم فى سرده لوقائع الغزو العربى لمصر وصف النيل بأنه ((نهر العسل فى الجنة)) (فتوح مصر وأخبارها- مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر عام ١٩٧٤ ص ١٠٣) وكثرة خيراتها واعتدال مناخها ، ترتب على ذلك أنْ أصبحتْ مصر ضحية لموقعها الجغرافى المتميز، فتعرّضتْ- على مر التاريخ- لعدة غزوات . ولم تكن الحدود الشرقية وحدها هى سبيل الوصول إلى مصر، وإنما الحدود الغربية أيضًا مثلما حدث مع الغزو الليبى فى العصور القديمة .

والكتابة عن (الحدود والغزوات) فى حاجة لدراسة خاصة وفى كتاب مستقل، لذلك فإننى سأقصر الحديث عن الغزوات ضد مصر، عندما كانت الإسكندرية هى (بوابة) الاحتلال . تقع الإسكندرية على ساحل البحر المتوسط غربى فرع رشيد . أنشأها الإسكندر الأكبر عندما غزا مصر ٣٣٢ ق . م وهى أكبر ثغور مصر. وكان اسمها عند جدودنا المصريين القدماء (راكوتى) وعند اليونان (راكوتيس) وأطلق العرب عليها (راقوده) وكانت مسرح الأحداث عندما جلستْ كليوباتره السابعة على عرش مصر عام ٣٧ ق. م عندما تزوّجتْ أنطونيوس وحرّضته على محاربة أوكتافيوس . ولكن هزيمتها فى أكتوم عام ٣١ ق. م قضتْ نهائيًا على كل آمالها . وبالرغم من ذلك ظلّتْ الإسكندرية عاصمة مصر حتى تاريخ الغزو العربى ، إذْ إن عمرو بن العاص قبل أنْ يصل إلى مدنها المختلفة ، ومنها ما أطلق عليه الفسطاط (القاهرة فيما بعد) اختار أنْ تكون الإسكندرية هى مدخله لاحتلال مصر. ودعا عمرو بن العاص إلى غزو الإسكندرية مرتين : الأولى عام ٦٤١ والثانية عام ٦٤٥ وذكر ابن عبد الحكم أنّ الإسكندرية فُتحتْ عنوة (أى بالقوة) بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة . وفى وصف عمرو بن العاص للإسكندرية فى كتابه إلى عمر بن الخطاب قال ((ما رأيتُ مثل مصر قط وكثرة ما فيها من أموال))

(المصدرالسابق – ص ٤٦ ، ٦٣) .

وأثناء الصراع بين الملك الناصر والأمراء ، كانت الإسكندرية هى مسرح الأحداث للسيطرة على مصر(النجوم الزاهرة فى ملوك مصروالقاهرة- لابن تغرى بردى – ج ١٢ – هيئة قصورالثقافة عام ٢٠٠٨ من ص ١٨٠ - ٢٣٠) وعندما غزا الفاطميون مصر فإنّ المعز لدين الله الفاطمى اختارأنْ يكون دخوله (= غزوه) عن طريق الإسكندرية (بدائع الزهور فى وقائع الدهور- لابن إياس- هيئة الكتاب المصرية- عام ١٩٨٢- ج ١ ص ١٨٦) وكانت الإسكندرية- أيضًا- مسرح الأحداث أثناء الغزو العثمانى على مصرعام ١٥١٧ (د . حسين فوزى- سندباد مصرى- مكتبة الأسرة عام ٩٧ ص ٤٣ ، ٤٤) .

وقبل أنْ يحتل جيش نابليون بونابرت الإسكندرية عام ١٧٩٨ سبقتها محاولة من الإنجليز، إذْ ذكر الجبرتى أنه وردت إلى القاهرة المكاتيب بأنّ عمارة إنجليزية (يقصد الأسطول) من نحو ثلاثين مركبًا وقفتْ بعرض البحر أمام الإسكندرية. وحاول الإنجليز استرضاء السيد محمد كريم ، وإقناعه بأنهم جاؤوا لمدافعة الفرنساوية الذين يتهددون مصر. وأنّ محمد كريم لم يقبل العرض وردّ عليهم بكلام خشن ((هذه بلاد السلطان . وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل)) ولكن بعد هذا التاريخ بعدة أسابيع ، جاء الأسطول الفرنسى إلى مصر، وكانت الإسكندرية هى مدخل الاحتلال ، حيث دخل عن طريق جزيرة العجمى . وبعد خروج الجيش الفرنسى من مصرعام ١٨٠١ حاول الإنجليز احتلال مصر. وكانت الإسكندرية – أيضًا- هى مدخلهم فى هذه المحاولة. إذْ أنه فى أول مارس ١٨٠٧ دخلت سفينة إنجليزية إلى مياه الإسكندرية. وفى يوم ١٤ دخلت سفينة أخرى ، وفى مطلع يوم ١٧ وصل عدد السفن الإنجليزية ٢٥ سفينة. وذكرالمؤرخ عبدالرحمن الرافعى ((أنه فى ليلة ٢١ دخل الإنجليز الإسكندرية دون أنْ تُطلق رصاصة واحدة)) والسبب أنّ ((محافظ الإسكندرية (أمين أغا) شغل منصبه

بفرمان من الحكومة التركية. وكان متواطئًا مع الإنجليز على أنْ يُسلمهم المدينة)) وبعد تفاصيل كثيرة ، زحف فريزر على رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة للجيش البريطاني . وفى يوم ٢٩ مارس تحرّكتْ القوات الإنجليزية من الإسكندرية لاحتلال رشيد . ثم وصف المقاومة الباسلة لأهالى رشيد حتى تم جلاء القوات الإنجليزية (لمزيد من التفاصيل : انظر عبدالرحمن الرافعى - مصر المجاهدة فى العصر الحديث - من ولاية محمد على إلى نهاية حكم سعيد - ج ٢ كتاب الهلال - عام ١٩٨٩ من ص ٢٨ - ٣٦) .

تكرر الاعتداء على هذه المدينة (الجميلة / المنكوبة) مرة أخرى ، إذْ فى شهر مايو ١٨٨٢ عندما تفاقم الخلاف بين الخديو توفيق وأعضاء الوزارة ، أعلنتْ الصحف الأوروبية أنّ إنجلترا وفرنسا عازمتان على إرسال أسطوليهما إلى الإسكندرية. وبالفعل تحققت توقعات تلك الصحف . وفى يوم ١٢ مايو قال اللورد (جرانفيل) وزير خارجية إنجلترا للمسيو(تيسو) سفير فرنسا فى لندن ((إنّ الحاجة ماسة إلى القيام بمظاهرة بحرية فى مياه الإسكندرية)) وذكر عبدالرحمن الرافعى أنّ تلك المظاهرة البحرية كانت الثانية التى قامت بها الدولتان . وأنّ الأولى كانت فى أكتوبر ١٨٨١ والثانية كانت أشد خطرًا من الأولى ، إذْ أنها لم تكن مظاهرة فحسب ، بل كانت مقدمة لضرب الإسكندرية والإحتلال البريطانى . فقد وصلت البوارج إلى مياه الإسكندرية يوم ١٩ مايو ١٨٨٢ وفى يوم ١١ يونيو وقعت مذبحة الإسكندرية بسبب الشجار الذى وقع بين أحد المالطيين من رعايا الإنجليز والمصرى السكندرى (السيد العجان) الذى أجرّ حماره للمالطى ولم يعطه إلاّ قرش صاغ بعد أنْ استغل الحمار طوال النهار إلى آخر الواقعة المشهورة التى انتهتْ بمذبحة راح ضحيتها ٤٩ قتيلا منهم ٣٨ أجنبيًا والباقى من السكندريين . واستمر التوتر حتى كانت الذروة يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ عندما ضرب الأسطول الإنجليزى مدينة الإسكندرية (لمزيد من التفاصيل انظر: عبدالرحمن الرافعى فى

كتابه «مصر المجاهدة فى العصر الحديث – الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى والسودان» ج ٤ – كتاب الهلال – عام ١٩٨٩ من ص ٧٢ – ١٢٦) .

هكذا كان قدر هذه المدينة الجميلة ، أنْ تكون مدخل الغزاة لاحتلال مصر. إذن فإنّ حدود مصر لا تقتصر على الحدود الشرقية ، وأنّ الغزاة يختارون الدخول (= الغزو) إلى مصر من أية جهة (= حدود) وفقًا لحساباتهم . وإذا كان عام ١٨٨٢ المحطة الأخيرة بالنسبة للإسكندرية مع الغزاة ، فإنّ عبدالناصر والقيادة العسكرية أثناء حرب السويس بعد تأميم القناة ، توقع أنّ بريطانيا فى حالة استخدامها القوة العسكرية ، فإنها ستتقدم أساسًا بقواتها نحو مصر من ناحية الإسكندرية ورشيد . لذلك بُنيتْ الخطة الدفاعية على أساس هذا الاحتمال . وعندما أبلغ خالد محيى الدين عبدالناصر بالمعلومات التى حصل عليها من أحد أصدقائه بباريس ، وتُشير إلى أنّ فرنسا تعمل متعاونة مع إسرائيل لمهاجمة مصر، فإنّ عبدالناصر لم يأخذ هذه المعلومات مأخذ الجد ، واعتقد هو وعبدالحكيم عامر أنّ الغرض من هذه المعلومات دفع مصر إلى حشد قواتها الدفاعية تجاه إسرائيل ، تاركين الإسكندرية ورشيد (وهى طريق تقدم القوات البريطانية وفق رأى عبدالناصر وعبدالحكيم عامر) دون قوات دفاعية (مصرية) للتصدى لها . وأكثر من ذلك أنّ ضباط الاتصال (المصريين) كان تقديرهم أنه من الصعوبة بمكان إنزال قوات معادية فى بورسعيد أو السويس . وإنْ كانت هناك محاولة من العدو فستكون من غرب الإسكندرية ، ولذلك لم تُعط أهمية قصوى لتقوية الدفاعات فى منطقة القناة ، وذلك رغم أنّ الإنذار البريطانى / الفرنسى كان قد حدّد المنطقة التى هدّدا باحتلالها وهى منطقة قناة السويس التى هى موضع الخلاف بعد قرار التأميم (لمزيد من التفاصيل انظر: مذكرات عبداللطيف البغدادى- مصدر سابق- ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٥١) .

والسؤال المسكوت عنه فى مسألة حدود مصر هو: هل استباحتْ إسرائيل المدن المصرية عن طريق الحدود الشرقية فقط ، أم أنّ طيرانها استباح كل الحدود

المصرية واستطاع تدمير الطائرات والممرات المصرية فى كارثة بؤونة / يونيو ٦٧ التى أطلق عليها الإعلام العروبى المعادى لمصر (شعبًا وحضارة) اسم الدلع (نكسة) وأنّ إسرائيل فعلتْ ذلك فى ثلاث ساعات ونصف ، ضربتْ فيها ١١ قاعدة جوية مصرية فى وقت واحد من العريش إلى الأقصر؟ (هيكل – حرب الثلاثين سنة- الانفجار١٩٦٧ من ص ٧٠١- ٧١٣) فهل يجرؤ الإعلام العروبى تكذيب هذه الحقائق ؟ خاصة وأنها منشورة فى كتاب عروبى كبير هو الأستاذ هيكل . وأثناء السنوات التى أطلق عليها هذا الإعلام (حرب الاستنزاف) فإنه (أى هذا الإعلام) لم يسأل – حتى لاتنتقل (عدوى) السؤال إلى المصريين الذين يدفعون ثمن الحروب ، كيف استباح الطيران الإسرائيلى حدود مصر، فضرب مصانع (أبوزعبل) ومدرسة بحر البقر بمحافظة الشرقية ، وضرب مدْينة الفيوم وحى المعادى بالقاهرة إلى آخر الجرائم التى ارتكبتها إسرائيل ضد مصر؟ ولم تتوقف هذه الاعتداءات إلاّ بعد الاستعانة بالطيران الروسى والطيارين الروس ، وهى حقيقة أخرى مسكوت عنها ، مثلها مثل حقيقة أخرى مسكوت عنها أيضًا ، عندما وجّه عبدالناصر النداء إلى الرئيس الأمريكى نيكسون يوم ١/ ٥/ ١٩٧٠ للتدخل لوقف الاعتداءات الإسرائيلية داخل الحدود المصرية ، فترتب على هذا النداء من عبدالناصر إلى الرئيس الأمريكى المبادرة الأمريكية المعروفة باسم (مبادرة روجرز) فى ٢٥/ ٦/ ٧٠ وكان تبرير عبدالناصر لقبول هذه المبادرة ، فى رده على العروبيين الذين اتهموه بالخيانة ((إنّ المضى فى حرب الاستنزاف ، فى حين أنّ إسرائيل تتمتع بتفوق جوى كامل ، معناه – ببساطة- أننا نستنزف أنفسنا)) (د. عبدالعظيم رمضان – حرب الاستنزاف بين الحقيقة والافتراء- هيئة الكتاب المصرية- عام ٩٨ ص ٤٨) .

إذن فإنّ حدود مصر- مثلها مثل أية دولة- مُتعددة . وأنّ الخطر قد يأتى من أية جهة ، وبالتالى فإنّ مقولة العروبيين والإسلاميين أنّ الحدود الشرقية هى الحدود

الوحيدة التى تُشكل الخطر على أمن مصر القومى ، وأنّ مقاومة مصر لإسرائيل ليس دفاعًا عن فلسطين بل عن حدود مصر، هى مقولة باطلة . والسؤال الذى يتجاهله هؤلاء وأولئك هو: لو أنّ إسرائيل لم توجد من الأصل ، ولم تحدث كارثة احتلال فلسطين ، أليس من واجب القيادة المصرية حماية حدودها ؟ أو ليس من واجب أى نظام سياسى فى أية دولة حماية حدوده ؟

إنّ العقل الحر – وحده – هو القادر على الفصل بين تعاطفنا نحن المصريين مع الشعب الفلسطينى ، وإيماننا بقضيته ، وأملنا فى تحرير أرضه وإقامة دولته المستقلة ، وبين توريط مصر فى حرب جديدة مع إسرائيل . وصدق الراحل الجليل لويس عوض فى قوله الحكيم ((أليستْ فلسطين صليبنا الذى نحمله جميعًا إلى أنْ يقضى الله أمرًا كان مفعولا ؟ فما بال مصر تحمل العبء الأكبر من المال والرجال ، وهى أفقر عضو فى المجموعة العربية ؟)) (انظر كتابه : لمصر والحرية – مطابع الأهرام التجارية – دار القضايا – عام ٧٧ ص ١٢٦) .

***

أعتقد أنّ مأساة مصر تتجسّد فى الإعلام العروبى الذى يُصر على إلغاء خصوصية الثقافة القومية لكل شعب من شعوب المنطقة ، وعدم الاعتراف بأى تمايز بين دولة ودولة ، وبين شعب وشعب ، وأنّ الجميع متشابهون كأنهم نسخ كربونية. بالاضافة إلى تلك المقولة (غير العلمية) التى ردّدها هذا الإعلام الناصرى / العروبى ، وهى (أنّ مصر لاشىء بدون العرب ، والعرب لاشىء بدون مصر) وأرى أنّ هذه المقولة إهانة للعرب ، بقدر ما هى إهانة لمصر . وبعد كل الكوارث التى جلبها النظام الناصرى على الشعب المصرى ، مازال أ. محمد حسنين هيكل (الصحابى الأول لنبى العروبة عبدالناصر) يُردّد تلك المقولات الخاطئة والمضللة ، من ذلك ما فعله فى قناة الجزيرة فى شهر يونيو ٢٠٠٩ إذْ ذكر أنه ((يستحيل الدفاع عن الأمن الوطنى المصرى بدون حزام قومى عربى)) ونال هذا الكلام إعجاب

القناة التى تستضيفه ، فأصرّتْ على إعادة هذه الفقرة (بالذات) ضمن فواصلها الإعلانية لعدة أيام . فما مدى صدق هذا الكلام ؟ وهل هو اكتشاف جديد ؟ إنّ بداية التوجه العروبى كانت منذ يناير٥٣ باعتراف ضابط المخابرات المصرى فتحى الديب المولع بالعروبة (انظر كتابه : عبدالناصر وتحرير المشرق العربى – مصدرسابق– ص ١٢ ، ٣٠) أى أنّ ما ذكره أ. هيكل فى ٢٠٠٩ ليس اكتشافًا ، وإنما هو يبيع بضاعة قديمة حفظتها شعوب المنطقة بفضل الإعلام الموجّه وبفضل الكتاب المدرسى . إذن هى رسالة لتكريس التوجه الأيديولوجى العروبى المعادى لأية خصوصية سواء لأية دولة عربية أو لمصر ، حتى فيما يتعلق بقدرة مصر فى الدفاع عن حدودها الـــوطنية ، يؤكد ذلك أنّ ما ذكره هيكل فى ٢٠٠٩ هو تكرار لما كتبه عام ٧٣ إذْ قال ((إنّ طاقة مصر وحدها لا تستطيع إحراز النصر المزمجى فى الصراع الراهن فى أزمة الشرق الأوسط)) (أهرام ٦/ ٧/ ٧٣) أى قبل حرب أكتوبر٧٣ بثلاثة شهور. ولم يكتف هيكل بإنكار قوة مصر الذاتية ، وإنما وصفها فى نفس المقال بأنها ((شظية اسمها مصر)) ونظرًا لإيمانه ب (الوحدة العربية) رغم فشل الوحدة المصرية السورية ، قال ((لا مستقبل للكيانات الشظايا . شظية اسمها السعودية. وشظية اسمها ليبيا .. إلخ)) وفى الأسبوع التالى كرّر نفسه ولكن بمزيد من الهدم لمبدأ الاعتماد على القوة الذاتية لأية دولة فذكر لو أنّ ((كل بلد عربى وجد الوسيلة لتنمية مستقلة ، فمعنى ذلك أننا سندخل فى عصر من المنافسة الطاحنة بين الضعفاء)) فما هى النتيجة فى رأى الأستاذ الكاتب الكبير كما تصفه الثقافة السائدة وكل تلامذته البؤساء ؟ كتب ((شظايا تصطدم مع الشظايا . فتات يأكل الفتات)) ولشدة ولعه باللعب بالألفاظ أضاف ((أننا إذا لم ننجح فى التنمية المستقلة وقعنا فى الخطر. وإذا نجحنا فى التنمية المستقلة وقعنا فى الأخطر)) فهل ينكر أى عاقل أنّ هذا الكلام يصب فى مصلحة الرأسمالية العالمية ؟ لقد أضحكنى أ. هيكل عندما سمعتُ أحاديثه فى قناة الجزيرة ، وربطتها بمقالاته فى الأهرام ، فهو إذْ يرى فى

٢٠٠٩ أنّ مصر لا شيء بدون العرب ، كتب فى عام ٧٣ أنّ ((الأمة العربية أمامها فترة محدودة – ثلاث سنوات أو خمس على أكثر تقدير – فإذا لم تستطع خلالها أنْ تبدأ بنوع من العمل العربى وتختم بنوع من الوحدة العربية ، فإنّ هذه الأمة سوف تفقد مكانها على الخريطة السياسية للعالم الجديد . بل أكاد أقول إنها مُهددة بفقد مكانها على الخريطة الجغرافية لهذا العالم أيضًا . وسوف تكون عاجزة عن مواجهة التحدى الإسرائيلى القائم فعلا)) (أهرام ١٣/ ٧/ ٧٣) فإذا أخذنا الحد الأقصى الذى حدّده أ. هيكل لفقدان الأمة العربية لمكانها (والأدق لغويًا مكانتها) فإنّ المدة تنتهى فى عام ١٩٧٨ ، فما هى حالته العقلية فى ٢٠٠٩ وهو يبيع بضاعته القديمة لقناة الجزيرة ، عندما أصرّ على أهمية العرب لمصر لحماية أمنها القومى ، بعد أنْ فقدوا مكانتهم حسب قوله ؟

وسبب العروبة التى يرى هيكل أنها الحامية لمصر، تم قتل المصريين واليمنيين فى (بالوعة) اليمن حسب وصفه (أهرام ١/ ٦/ ٧٣) وأنّ إيمان عبدالناصر بالعروبة جعله يستهين بحديث الحبيب بورقيبة الذى ذكر له أنّ الأمير فيصل قال ((إذا لم ينسحب الجيش المصرى من اليمن ، فنحن على استعداد لأنْ نجعل منها مقبرة كبيرة له)) (نقلاعن كتاب هيكل – الإنفجار ص ٦٢) وبالطبع فإنّ المقبرة كانت للمصريين الشرفاء الذين ماتوا فى كوارث اليمن وفى عام ٥٦ ، ٦٧ وليست (المقبرة) لعبدالناصر الذى استمرحتى يُجهّز لمقبرة الجيش المصرى فى بؤونة / يونيو٦٧ . وبسبب العروبة تم تبديد موارد مصرعلى سوريا واليمن والجزائر إلخ (لمزيد من التفاصيل أنظر كتاب فتحى الديب – مصدر سابق – أكثر من صفحة) .

وهيكل ٢٠٠٩ يتجاهل ما كتبه على لسان عبدالناصرالذى قال يوم ٢٩/ ٨/ ٦٥ إنّ العرب يُتاجرون بالشعارات ((وبالتالى فإن ج.ع.م (أى مصر) ستجد نفسها مضطرة إلى الانسحاب من مؤتمرات القمة لتحل مسئوليتها التاريخية وحدها)) وعن فلسطين قال عبدالناصر ((نحن جميعًا لا نملك خطة لتحرير

فلسطين ولانملك الوسائل لتحقيق ذلك)) (هيكل – الانفجار– ص ٢٠٧ ، ٢٠٨) وهيكل يتجاهل أنه أثناء العدوان الثلاثى على مصر ، فإنّ الطائرات البريطانية كانت تضرب بورسعيد من مطارالحبانية بالعراق (صحيفة الشعب ٢٥/ ١١/ ٥٦) ويتجاهل أنّ نبى العروبة (عبدالناصر) قال لإيدن ((إذا اعتديتم علينا سنستعين بالاتحاد السوفيتى)) (صحيفة الشعب ٢٩/ ١١/ ٥٦) فلماذا لم يقل سنستعين بالعرب ؟ هل لأنّ نبى العروبة أكثر واقعية من الصحابى الأول ؟ وهيكل ٢٠٠٩ يتجاهل ما كتبه هيكل ١٩٩٨ إذْ ذكر أنّ الجيوش العربية سلّمتْ قيادتها للجنرال جلوب الإنجليزى . وأنّ بعض الجيوش العربية تخلّتْ عن مساعدة الجيش المصرى فى معارك النقب وغيرها فى شهرىْ نوفمبر وديسمبر٤٨ (هيكل– العروش والجيوش– دارالشروق– عام ٩٨ ص ٤٤٥) وهيكل الذى يُروّج لمقولة: إن مصر بدون العرب مجرد (شظية) هو الذى كتب أنّ ((الصراع العربى الإسرائيلى فى جوهره صراع بين (الكم) العربى و(الكيف) الإسرائيلى . قد يكون العرب مائة مليون ولكنهم بعيدون عن روح العصر ولهذا لايلحقون به)) (أهرام ٨/ ٦/ ٧٣) لذا لم تكن مفاجأة أنْ يقوم الطيران الإسرائيلى يوم ٧/ ٦/ ٨١ بتدميرالمفاعل العراقى (رغم محطة الإنذارالمبكر فى الأراضى السعودية) ويقوم فى العام التالى (يونيو٨٢) بغزو لبنان . فإذا كانت الميديا العروبية تُروّج لمقولة اعتماد مصر على العرب ، يكون من المشروع السؤال : بماذا قدّم العرب للعرب ؟ فعندما غزا جيش صدام دولة الكويت ، فإنّ الكويت استعانتْ بأمريكا لتحرير أراضيها . وذكر فتحى الديب أنّ قاعدة الظهران الأمريكية التى أقامتها أمريكا بالسعودية ، كانت بديلا مأمونًا وبعمق المشرق العربى)) (مصدرسابق– ص ١٨١) ولكنه لم يذكر الهدف من إقامة هذه القاعدة العسكرية الأمريكية. وأنّ إقامتها ضد من ؟ وباعتراف هيكل فإنّ السعودية بها ١٦٠٠ خبير عسكرى بريطانى وأمريكى (الانفجار– ص ٢٤١) وهيكل الذى كتب كثيرًا عن (الاستعمار الأمريكى) وعن (الكيان الصهيونى) فى

وصفه لإسرائيل ، يتحدث فى فضائية الجزيرة التى تقع على بعد عدة أمتار من أكبر قاعدة عسكرية أمريكية فى (الخليج العربى) وعلى بعد عدة أمتار من المكتب التجارى الإسرائيلى بالدوحة . فكيف تصوّر أنْ يُصدّقه أحد غير البلهاء حسنى النية ؟ أم أنه يعتمد على المشاهدين العروبيين ودراويش الناصرية وحدهم ؟

ويتجاهل هيكل أنّ نبى العروبة (عبدالناصر) هو مهندس هزيمة يؤونة / يونيو٦٧ . ولم تكن أكذوبة الحشود الإسرائيلية على الحدود السورية ، إلاّ (الشماعة) التى علّق عليها تورط مصر فى هذه الكارثة التى يصعب محو آثارها من نفوس المصريين ، والتى تبدو وقائعها أغرب من الأساطير ومن خيالات كتّاب ألف ليلة وليلة ، خاصة وأنّ التقارير المصرية أكدت له (أى لعبدالناصر) أنه لاتوجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية. فكانت النتيجة كارثة الهزيمة التى أطلق عليها الصحابى الأول اسم الدلع (النكسة) رغم أنّ إسرائيل دمّرتْ كل الطائرات والممرات المصرية فى مدة قدّرها هيكل نفسه ب ((ثلاث ساعات ونصف)) (هيكل- الانفجار- ص ٧١٠) وإسرائيل التى كتب هيكل أنه ((لامستقبل لها فى المنطقة)) (أهرام ٨/ ٦/ ٧٣) والتى قرّر العرب فى بيان القيادة السياسية الموحدة فى شهرمايو٦٥ أنّ ((الهدف العربى القومى هوالقضاء على إسرائيل)) (فتحى الديب- مصدرسابق- ص ٦٨٨) إسرائيل (المزعومة) فى الميديا العروبية ضربت ١١ قاعدة جوية مصرية فى وقت واحد من العريش إلى الأقصر(هيكل- الانفجار- ص ٧١٣) وتحت شعارالقومية العربية أتاح نبى العروبة لإسرائيل ، ليس احتلال سيناء فقط ، وإنما أيضًا القدس والضفة الغربية وغزة والجولان السورية. والأكثر فداحة ما ذكره ماكنمارا وزيرالدفاع الأمريكى من أنّ ((دولة عربية طلبت كمية من الأسلحة لمواجهة السوفيت ، وأننا وافقنا بشرط أنْ لاتُستخدم أسلحتنا ضد إسرائيل)) (الانفجار- ٢٤١- ٢٤٢) وهيكل الذى نقل هذا الحديث لم يُعلّق عليه بكلمة واحدة .

يُفرّق هيكل والميديا العروبية بين أنظمة رجعية وأخرى (تقدمية) وأنّ الأمل فى الاعتماد على الأخيرة (الانفجار- ص ٦٦) وليس لدىّ تعليق أبلغ من الواقعة التى ذكرها المؤرخ المرحوم د. رؤوف عباس الذى ترجم كتابًا عن جريمة أمريكا ضد الشعب اليابانى فى هيروشيما وناجازاكى فى أغسطس ١٩٤٥ . كان الكتاب بعنوان (اليوميات والشهادات) طبع د. رؤوف الكتاب على نفقته الخاصة وكان ذلك فى عام ١٩٧٥ . تعاقد د. رؤوف مع الأهرام لتوزيعه ، فقال له صلاح الغمراوى مدير التوزيع آنذاك (أنّ الوقت غير مناسب لصدور هذا الكتاب) طاف د. رؤوف على مكتبات القاهرة يعرض عليها توزيع الكتاب ، فاكتشف أنّ هناك تعليمات شفوية من المباحث العامة بعدم طرح الكتاب للبيع . دلّه صديق على مكتبة الخانجى التى قبلتْ الكتاب لتصديره إلى دول (جبهة الرفض : العراق ، سوريا ، ليبيا ، الجزائر) كانت القاعدة المعمول بها تقتضى إرسال عدة نسخ إلى البلد المعنى للحصول على موافقة الرقابة. كانت النتيجة أنّ ((الرقابة فى البلاد الأربعة رفضت السماح بدخول الكتاب)) وكان تعليق د. رؤوف على هذه الكوميديا السوداء ((اكتشفتُ زيف تشدق النظم العربية (التقدمية) بشعارات معاداة الامبريالية (الأمريكية) ومدى ارتباط أجهزتها المعنية بالولايات المتحدة الأمريكية)) (مشيناها خطى- كتاب الهلال- ديسمبر٢٠٠٤ (من ١٨٣ - ١٨٦) فهل هناك تضليل إعلامى وثقافى أكثر من ذلك ؟ وهل صحيح أنّ مصر(أو أية دولة أخرى) لاتستطيع أنْ تعتمد على قواها الذاتية أو تحمى حدودها إلاّ بعد الاعتماد على دول أخرى ؟ ألا يؤدى هذا الكلام إلى كسر القوة الذاتية لأى شعب ؟ وبالتالى يصب فى صالح الرأسمال العالمى ؟ وألا يعنى أنّ شعار العروبة الذى باركته بريطانيا ثم أمريكا هو ضد العرب مثلما هو ضد مصر؟ وصدق الشاعر الكبير نزار قبانى فى قوله الحكيم ((سقط الفكر فى النفاق السياسى / وصار الأديب كالبهلوان / تستبد الأحزان بى .. فأنادى / آه يا مصر من بنى قحطان)) .

أعتقد أنّ العقل الحر لا ينكر أنّ لغة العلم تختلف عن لغة الخطابة ولغة المشاعر- سواء عاطفية أو دينية أوعرقية- لأنّ هذه اللغة- وبغض النظر عن البحث وراء أهدافها- هى التى جعلت عبدالناصر يرمى بالجيش المصرى فى (بالوعة) اليمن حسب وصف هيكل ، وهى البالوعة التى راح ضحيتها آلاف الأرواح المصرية وملايين الجنيهات المصرية. وباعتراف عبد الناصر أنّ الخزينة المصرية كانت تتحمل ٤٥ مليون جنيه مصرى (بسعر الستينيات) كل سنة. وكتب هيكل أنّ ((حرب اليمن كلّفتْ الخزينة المصرية كل سنة ما بين أربعين إلى خمسين مليون جنيه ، أو مايوازى مائة مليون دولار وقتها)) (الانفجار- ص ١٨٥) واعترف عبد الناصر أنّ القبائل اليمنية (التى تظاهرت أنها مع النظام الجمهورى) كانتْ تأخذ المال والذهب من مصر ومن السعودية فى نفس الوقت (فتحى الديب- مصدر سابق من ص ٥٢٠- ٥٢٢) ووصل عدد الجنود المصريين فى اليمن وفق تقدير عبدالناصر أربعين ألفًا (نقلا عن هيكل- الانفجار- ص ١٦٨) وذكر أ. ياسين سراج الدين أنّ عدد الشهداء من أبنائنا المصريين فى اليمن بلغ خمسة عشر ألفًا ، أى بنسبة ٥ , ٣٧ ٪ من إجمالى العدد السنوى لقواتنا فى اليمن (صحيفة الدستور المصرية- الإصدار الأول ٢٣/ ٧/ ٩٧) وعبدالناصر وهو يُمهّد لهذه المجزرة التى راح فيها الآلاف من المصريين واليمنيين ، لجأ إلى اللغة الدينية فقال ((إنّ جبال اليمن تحمل قبسًا من نفس الشعلة المقدسة التى يحج إليها المسلمون فى عرفات)) (نقلا عن أ. عبدالحليم قنديل- الناصرية والإسلام- مركز إعلام الوطن العربى- صاعد- ١٩٩١- ص ٢٢) .

وبسبب هذا التوجه العروبى الذى أهدر دماء المصريين وأموالهم ، لم يراع أية خصوصية لمصر، وحتى بعد كارثة بؤونة / يونيو٦٧ التى كان من المفترض أنْ تكون وقفة مع الذات لمراجعة كل أخطاء الحقبة الناصرية / العروبية / الإسلامية ، فإنّ عبدالناصر أصرّ على تنفيذ مخطط شطب أية مصلحة قومية تخص مصر فقال

((إنّ سيناء بكل ما فيها من بترول ومعادن ، لاتهمنى بقدر اهتمامى بالضفة الغربية)) وقال أيضًا ((إنّ القدس أهم من سيناء)) لذلك كانت الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان صادقة مع نفسها عندما قالت ((الله فى السماء وعبدالناصر فى الأرض)) (نقلا عن أ. رجاء النقاش- أهرام ٤ ، ١١ يناير٢٠٠٤) .

obeikan.com

صدر للمؤلف

* مدينة طفولتى : مجموعة قصص قصيرة- هيئة الكتاب المصرية- عام ١٩٩٠ وأعيد طبعها ضمن مشروع مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١ .

* أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر- هيئة الكتاب المصرية.عام ١٩٩٩. وأعيد طبعها ضمن مشروع مكتبة الأسرة فى نفس العام .

* الثقافة السائدة ومقاومة الميديا الصهيونية بالعبرى – عام ١٩٩٩ على نفقة الكاتب بالتعاون مع الجمعية المصرية للتنوير.

* أنساق القيم فى الإبداع المصرى- مجموعة دراسات فى النقد الأدبى- هيئة قصور الثقافة- سلسلة كتابات نقدية عدد رقم ١٠٣ – مايو ٢٠٠٠ .

* العسكر فى جبة الشيوخ : الأصولية الإسلامية قبل وبعد ١٩٥٢ – مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان – عام ٢٠٠٣ ، وأعيد طبعه باسم (الثقافة المصرية والأصولية الدينية – قبل وبعد يوليو ١٩٥٢) مع المزيد من الإضافات . وصدر عن«الدار للنشر والتوزيع » عام ٢٠١٠ .

* ترنيمة عشق : رواية- هيئة الكتاب المصرية- عام ٢٠٠٦ .

* هديل الحمام : مجموعة قصص للأطفال – هيئة قصور الثقافة- العدد رقم ١٧٤ عام ٢٠٠٨.

* موسيقى من السماء ـ مجموعة قصص للأطفال ـ هيئة الكتاب المصرية ـ عام ٢٠١١.

* الليبرالية المصرية قبل يوليو ١٩٥٢ ـ مكتبة الأسرة ـ عام ٢٠١٠.

* العلمانية والطريق إلى الاستقرار الاجتماعي ـ دار الدار للنشر عام ٢٠١١.